بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور: عبد الجليل قريان.

الرتبة: أستاذ محاضر " أ "

المؤسسة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

مداخلة للمشاركة في : المؤتمر الدولي الثاني حول:" العلوم الإسلامية من الرصيد التاريخي إلى التفعيل الحضاري"، مكتبة الحامة الجزائر العاصمة يومي 12-13 شعبان 1443هـ/15-16 مارس 2022م

محور المشاركة: المحور الثاني :" الدور التاريخي للعلوم الإسلامية".

عنوان المداخلة:

موقف منظومة الفقهاء من العلوم العقلية في العصر الإسلامي الوسيط

– قراءة في مواقف الفقهاء واتجاهاتهم–

أحسب أن الناظر في عمق مسألة التراجع العلمي والحضاري الذي تعانيه أمتنا الإسلامية والفجوة العلمية الكبيرة التي تفصل بيننا وبين العالم المتطور في العلوم العقلية والتكنولوجية بالخصوص لا يجد عناءا كبيرا في تلَمُّسِ أسبابه وتشخيص مظاهره، إنه يتعلق أساسا بالتصور الذهني لهذه العلوم في حقيقتها وفي قيمتها وما ترسخ حولها من مفاهيم ومواقف تاريخية من قبل منظومة الفقهاء، التي كان تيارها الغالب يرى في جملة علوم الأوائل بما فيها العلوم العقلية شرا مستطيرا على العقيدة الإسلامية والثقافة الإسلامية يجب رفضه ومقاومته بشتى الطرق والوسائل، وتمت عمليات الفصل مبكرا بينها وبين العلوم الشرعية أو النقلية، هذه الثنائية(النقلي/ العقلي) التي لا تزال مكرسة إلى يومنا هذا، وتحولت بمرور الزمن إلى عقيدة لا يمكن تجاوزها، إلا بعد المرور على صراط من التهم التي تلقي بصاحبها في أتون الزندقة والإلحاد والكفر، وما يلحقه بسببها من الانكار والعذاب والعنت، أو من التهوين والتزهيد والاستبعاد.

كان لهذا التصور وما انجرَّ عنه من السلوك أثره الكبير في رسم السياسات الثقافية العامة في المنظومة العلمية الإسلامية مشرقا ومغربا على مدار العصر الوسيط رغم بعض الاستثناءات التي حققت من خلالها أمتنا – رغم كل ذلك – نقلة نوعية في مجال العلوم العقلية، ولكنها ما لبثت أن تكرست التصورات الغالبة على الثقافة السائدة، وتمت عمليات التراجع إلى فرض حصار كبير على العلوم العقلية مرة أخرى واعتبارها في أحسن الاحوال علوما ثانوية وفي مراتب دونية.

ونعني بالعلوم العقلية في هذه الدراسة ذلك المصطلح الذي أصبح شائعا ومتداولا في العصر الوسيط شرقا[1] وغربا[2] في مقابل العلوم النقلية(الشرعية) في إطار التصنيف الذي وقَرَ في المجتمع الإسلامي وتتمثل في:

---

[1] جاء مصطلح العلوم العقلية عند أبي حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م) في، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، ط1، 1426هـ/2005م ج1، ص 21. وتهافت الفلاسفة، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط4 ، 1410هـ/1990م، 210، ص 256. وكذلك في، ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق عمار طالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط2، 1394هـ/1974م، ص 33. وكذلك في،

علوم الطب، والرياضيات بما فيها الحساب والجبر والمقابلة، والهندسة، والحيل (الفيزياء)، والهيئة(الفلك)، والكيمياء، والمنطق، وكل ما ينتمي إليها؛ وكانت هذه العلوم في العصر الوسيط يجمعها مصطلح الفلسفة[3] أو علوم الأوائل(أو القدماء)[4] في كثير من الأحيان وعند معظم الفقهاء، كما كانت تضم إلى جانب ذلك العلوم الإلهية ثم بعد ذلك علم الكلام.

في هذه الورقة محاولة للكشف عن مواقف الفقهاء وتقييم رؤاهم من موضوع العلوم العقلية، وقراءة في دوافعها وأسبابها ومبرراتها ونتائجها على المحتوى العلمي والاجتماعي والذهني وعلى مستقبل العلوم العقلية ذاتها. ولتفكيك هذه المواقف نستعرضها في العناصر التالية:

مدخل: بنية الخطاب العقلي في القرآن الكريم

كان بِوَدِّنا أن لا نتطرق إلى هذا المدخل المتعلق ببنية الخطاب العقلي في القرآن الكريم، نظرا للآيات الكثيرة والمستفيضة والواضحة التي تشير إلى ذلك، ما يغني عن ذكرها، ولأن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على صلة يومية مع كتاب الله يتلونه أناء الليل وأطراف النهار، وعلاقتهم بالقرآن الكريم تكاد تكون في تواصل مستمر، وخاصة العلماء منهم والفقهاء[5]، غير أن ما هو مبثوث في الثقافة الغالبة والمهيمنة على الذهنية الاسلامية وما هو مطروح في التراث الإسلامي الوسيط يؤكد حقيقة لطالما ذكَّر بها القرآن الكريم ونبه إليها جموع

ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1414هـ/1993م، ج4، ص 332. وعند، محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/ 1992م، ج9، ص 179–180.

[2] قسم أحمد بن إبراهيم ابن منعم العبدري العلم إلى قسمين: شرعي وعقلي، انظر كتابه فقه الحساب، دار الأمان، مطبعة الكرامة الرباط، ط1، 1426هـ/ 2005م، ص 19. وحلَّى لسان الدين ابن الخطيب (ت 776هـ/1374م) شيخه يحيى بن أحمد بن هديل بقوله:" كان آخر حمَلَة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها من طب، وهندسة، وهيئة، وحساب.."، انظر، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م ج4، ص 334. وعلى نفس المنوال جرى حديث عبد الرحمن بن خلدون(ت 808هـ/1406م) في مواضع كثيرة، منها الفصل الذي عنونه بفصل "العلوم العقلية وأصنافها"، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط3، 1427 هـ/ 2006م، ص 530.

[3] العلوم الفلسفية عند اخوان الصفا اربعة انواع: أولها الرياضيات، والثاني المنطقيات، والثالث العلوم الطبيعية، والرابع العلوم الالهية. انظر رسائل اخوان الصفا ج1 ص 48–49.

[4] مصطلح "علوم الأوائل" يورد بكثرة في مختلف كتب التراث، وسوف نجده في ثنايا هذا البحث، وعلى سبيل المثال وضع النديم(ت 380هـ) في عنوان المقالة السابعة من كتابه الفهرست أخبار الفلاسفة والعلوم القديمة، انظر، الفهرست، تحقيق أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، لندن 1430هـ/ 2009م، مج 1/2، ص 131، 306. وفصل ابن حزم الاندلسي(ت 456هـ) علوم الأوائل في رسائله، وهي: الفلسفة وحدود المنطق، وعلم العدد، وعلم المساحة، وعلم الهيأة، وعلم الطب، انظر، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1407هـ/1987م، ج3، ص 131– 133 . واستمر هذا المصطلح إلى نهاية العصر الوسيط، إذ وظفه السيوطي (ت 911هـ) في كتاب الاتقان في النوع الخامس والستين تحت عنوان "في العلوم المستنبطة من القرآن الكريم"إلى مجموع العلوم ومنها العلوم العقلية او ما سماه بعلوم الأوائل، انظر، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، إبراهيم، اصدار وزارة الشؤون الاسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، ج4، ص 29 .

[5] في كتب تراجم جل الفقهاء المسلمين نجد أولى خطوات العلم في نشأتهم هي حفظ كتاب الله او أجزاء منه، ثم دراسة علوم القراءات، كما شاعت قراءة ختمات من القرآن الكريم.

المسلمين ﴿ وقال الرسول يا ربِّ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾[6]، إن كثيرا من الناس يتلون كتاب الله ولا يتدبرون آياته، ولايعملون بها، ولا يجعلونها حاكما على أعمالهم وأفكارهم، وفي كثير من الأحيان لايتجاوز تراقيهم[7]. ولقد غطت على القرآن الكريم كثير من المتون الفقهية والفكرية والتفسيرية ذات التوجهات المختلفة والمشارب المتنوعة، وتمت شرعنتها، حتى أصبحت بديلا غير مصرح به عن القرآن الكريم، وأصبحت هي المعول عليها بينما أصبح الاستمداد من القرآن الكريم يأتي في مراتب متأخرة لاستيلاء هذه المتون على الحيز الاوفر من عقلية المسلمين[8]، وصارت تلاوة القرآن للتبرك وجمع الحسنات، بعيدا عن أوجه التدبر والتذكير، ومن ثم كان لزاما التذكير بهذا الخطاب.

1- الدعوة إلى العلم.

منَّ الله تعالى على الانسان إذ جعله خليفة في الأرض وهيأه بمختلف الاستعدادات لاستعمارها، ومن أعظم المنن أن أخرجه من بطن أمه صفحة بيضاء خلوا من العلوم والمعارف، وزوده بحواس السمع والبصر والفؤاد، تمكنه بنفسه من اكتشاف الكون والحياة وما تختزنه من علوم، حتى يكون تفاعله في هذه الحياة على وعي وهدى وبصيرة، ويتحمل مسؤوليته كاملة فيما وكَّله الله به واستخلفه من أجله، ومن أجلِّ هذه الأدوات السمع والبصر والفؤاد أو العقل[9]، وإذا كان السمع والبصر قنوات أساسية في نقل ورؤية المعلومات على حقيقتها فإنه لا فائدة منها إذا كان جهاز التحليل والتركيب والاستنتاج معطلا وهو العقل، فهو الذي تجتمع عنده كل المعلومات التي ينقلها السمع البصر والإحساس ليؤسس عليها ملاحظاته، وبعد استيفاء تحليلها وتركيبها يعطي نتائجه ويصدر حكمه، ويأخذ منها موقفا متناسبا مع هذه النتائج، وبهذا الشكل تكون حركة الانسان في عمومها متَّسِقة وموزونة، وكلما كانت الأدوات سليمة تؤدي وظائفها المنوطة بها، عاش الانسان في أحسن

---

[6] الفرقان آية 30.

[7] قال ابن تيمية :"من المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد الفاظه فالقرآن أولى بذلك، وايضا فالعادة تمنع ابن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم"، انظر مجموع فتاوي شيخ الاسلام احمد بن تيمية، مجمع فهد لطباعة المصحف الشريف ، المملكة السعودية، 1425هـ/2004م، ج 13 ص 332.

[8] انظر ابن حزم، الاحكام في اصول الاحكام، تحقيق احمد شاكر ، دار الافاق الجديدة بيروت، ، ج6، ص 59 وما بعدها في ابطال التقليد من الباب السادس والثلاثين.، وانظر بالخصوص ص117 –118 حيث قال :" وأما أهل بلادنا(الاندلس) فليسوا ممن يتعنى بطلب دليل على مسائلهم، وطالبه منهم – في الندرة– إنما يطلبه كما ذكرنا آنفا، فيعرضون كلام الله تعالى وكلام الرسول عليه السلام على قول صاحبهم، وهو مخلوق مذنب يخطء ويصيب، فإن وافق قولُ الله وقولُ رسوله عليه السلام قولَ صاحبهم أخذوا به، وإن خالفاه تركوا قول الله تعالى جانبا وقوله عليه السلام ظهريا، وثبتوا على قول صاحبهم، وما نعلم في المعاصي ولا في الكبائر – بعد الشرك المدرد– أعظم من هذه، وأنه لأشد من القتل والزنا، لان فيما ذكرنا الاستخفاف بالله عزوجل وبرسوله عليه السلام ، وبالدين". وفي ص 146 يحدد ابن حزم ان التقليد للمذاهب الفقهية المشهورة بدأت بعد سنة 140هـ.

[9] الفؤاد ليعقل عظمة الله، والفؤاد خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، ينظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ/1981م، ج28 ، ص 92.

حال، وأدرك نعمة الله عليه، وكان من الشاكرين ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[10]. إن هذه الحواس مما امتن الله به على عباده وبغيرها لايمكن للإنسان أن يؤدي دوره المكرم في هذه الحياة ﴿قل ارأيتم إن أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم، من إله غير الله ياتيكم به، انظر كيف نصرف الايات ثم هم يصدفون﴾[11] كما أن الجحود قد يعطل وظيفة هذه الحواس﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكن فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[12]

ونظرا لما يكتسيه العلم في نظر القرآن الكريم من أهمية بالغة في علاقة الانسان بالله تعالى وفي مسار حياته الدنيا، كان الخطاب القرآني يترقى في توجيهه للإنسان بما يجعله حريصا على العلم، مدركا لجاميع خيره، وأن السعادة فيه والشقاوة في حرمانه، فكانت أول آية من الوحي الكريم الدعوة إلى القراءة الموصلة إلى العلم ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾[13]، كما نبهه إلى أن سمو درجة الانسان وسموق مكانته عند الله وعند البشر مطردة مع جهده في توسيع مداركه وعلومه ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾[14]، وبين له أن الحقائق لا يمكن إدراك كنهها إلا بالعلم ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيومنوا به فتخبت له قلوبهم﴾[15]، ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[16]، ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾[17]، ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾[18]، وأبان له بأن الجهل بالحق من أسباب الإعراض عنه ﴿بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون﴾[19]، والجهل بعواقب الآفات مَهلَكة ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾[20]، وأن الأكثرية من الناس لا يتحرون العلم فيما يأتون ويفكرون ﴿ولكن أكثرهم لايعلمون﴾[21]، ﴿ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[22]؛ ومن

---

[10] **سورة النحل آية 78.**

[11] **سورة الأنعام آية 46.**

[12] **سورة الاحقاف آية 26.**

[13] **العلق آية 1–5.**

[14] **الزمر آية 9.**

[15] **الحج آية 54.**

[16] **العنكبوت آية 43**

[17] **الاعراف آية 32.**

[18] **الانعام آية 97.**

[19] **الانبياء 24.**

[20] **النمل آية 52.**

[21] **النحل آية 75، 101.**

[22] **النحل آية 38. الروم آية 6. سبأ آية 36 . غافر آية 57.**

أجل كل ذلك طلب منه الاستزادة المستمرة منه ﴿وقل رب زدني علما﴾[23]، والاستفادة من أصحاب الخبرات فيه ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾[24]. وخلص إلى أن القرآن الكريم ذاته بالإضافة إلى مهمة الابلاغ والإنذار والتذكير هو السبيل إلى معرفة الله ووحدانيته ﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليتذكر أولوا الالباب ﴾[25] .

2- الدعوة إلى النظر في ملكوت الله.

وجه القرآن الكريم نظر الانسان إلى كل ما يقع عليه بصره ويمكنه رؤيته من مخلوقات الله في هذا الكون الفسيح، حتى يستثير عقله وينشط فكره ويستعيد ملاحظاته وتركيزه، ويخرجه من دائرة التبلُّد العقلي الذي تصنعه العادة ورتابة الحياة؛ وتوزعت هذه التوجيهات نحو النظر في خلق السماوات والأرض وما فيها، وفي دورة الحياة للنباتات المختلفة وطعام الانسان بدءا بإنزال الماء من السماء إلى كيفية نموها ونضجها، وما في ذلك من عجائب قدرة الله ولطيف حكتمه، إلى النظر في خلق الانسان وبديع صنع الله فيه، والنظر في خلق بعض الحيوانات، وما فيها من عجائب، وكلها نماذج يراها الانسان ولا يجتهد في رؤيتها، فهي ماثلة أمامه قريبة منه، والمهم فقط أن يعيد النظر ويستعيد تفكيره كي يدرك ما وراء هذه المخلوقات من تقدير ودقة وحكمة بالغة لا يمكن ان تصدر إلا من حكيم حميد.

وقد عبر القرآن عن النظر الذي "ينبئ عن التأمل والمبالغة "[26]، ومحاولة الوصول إلى أسرار كيفية الخلق، كما عبر عنه بالرؤية التي تكون أبلغ من النظر، وسوف نكتفي بإيراد بعض النماذج من القرآن الكريم توضح المعنى مثل قوله تعالى ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾[27]، ﴿افلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد، وأحيينا به بلدة ميتا﴾[28]، ﴿فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم﴾[29]، ﴿ فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر﴾[30]، ﴿ أفلا ينظرون إلى الابل

---

[23] طه آية 114.

[24] الانبياء آية 7.

[25] إبراهيم 52.

[26] الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج28، ص 155.

[27] يونس، ية 101.

[28] ق آية 6-11.

[29] عبس آية 24-32

[30] الطارق آية 5-8.

كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الارض كيف سطحت ﴾[31]،﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لايات لقوم يومنون﴾[32]

3- فريضة التفكير وإعمال العقل.

في آيات كثيرة وجه القرآن الكريم العقل الانساني إلى البحث والنشاط وتوظيف طاقته التحليلية والاستنتاجية والتفكير بمنطق سليم، وإيجاد العلل والأسباب، والوصول إلى معرفة الخالق من خلال التمعن والدراسة لمختلف الظواهر الطبيعية وطرح التساؤلات المختلفة حول المخلوقات المبثوثة في الكون من أكبر جرم في الفلك إلى أدق مخلوق، وما سخر له من شمس وقمر ونجوم وليل ونهار وأرض وبر وبحر وحيوان وزرع ونبات وماء، وهذه الدعوة الملحة تتسم بالحرية التامة في إدراك ما يحيط به دون تدخل خارجي يحجزه عن رؤية الحقيقة، وربما سرد بعض هذه الايات كفيل بتوضيح عظمة التوجيه القرآني لإعمال العقل البشري، قال تعالى:﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[33]، ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمومنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾[34]، ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه إن في ذلك لآيات يقوم يتفكرون﴾[35]، ﴿ وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وعير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[36]، ﴿وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾[37]،﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لايات لقوم يعقلون﴾[38].

---

[31] الغاشية آية 17-22.

[32] النحل آية 79.

[33] البقرة آية 164.

[34] الجاثية آية 3-5.

[35] الجاثية آية 12 .

[36] الرعد آية 3-4.

[37] النحل 66-67.

[38] النحل آية 12.

كما شدد القرآن الكريم على الانسان أن يكون سيدا في تفكيره، موظفا حواسه من سمع وبصر وغيرها، مفكرا بعقله، مستهدفا الحقيقة وحدها، لا تؤثر فيه الأهواء والنزوات، ولا يتدحرج إلى الحيوانية التي تسير وفق هواها الغريزي ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه **وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون** إن هم إلاَّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا﴾[39].

وكان من أبرز ما استعيدت صياغته وتشكيله وفقا لهذه الرؤية محاولة النَّبش في القضايا المسلَّمة لإعادة عقلنتها من جديد،، والتنبيه إلى اعتماد الجهد العقلي كأساس في بناء الأحكام والتصورات، وتجاوز الرواسب الاعتقادية والثقافية التي تُشَوِّشُ على رؤية العقل وتَشُلُّ من وظيفته وتعطل حركيته، "وأكبر الموانع التي تعطل العقل عن وظيفته ثلاث موانع كبرى بمثابة الأصول التي تتفرع عنها مختلف الموانع الأخرى: "عبادة السلف التي تسمى بالعرف، والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية[40]، والخوف المهين من أصحاب السلطة الدنيوية"[41]، فمن سلم منها أَوْشَكَ أن يسلم من كل مانع يحجر على عقله، ويأخذ السبيل على تفكيره فلا يهتدي إلى رأي سواه"[42].

وفي هذا السياق جاء الوحي الكريم منبها إلى ذلك في قول الله تعالى:

– ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقِلون شيئا ولا يهتدون﴾[43].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[44].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[45].

---

[39] **الفرقان آية 44.**

[40] **انظر ما قاله ابن حزم في ذلك في كتابه، الإحكام في أصوول الاحكام، ج 6 ، ص 148.**

[41] **عباس محمود العقاد: التفكير فريضة اسلامية، ص 18.**

[42] **نفسه ص 18.**

[43] **سورة البقرة آية 170. وانظر كذلك، سورة المائدة آية 104. سورة الزخرف آية 23. سورة الشعراء آية 69–74. سورة الاعراف آية 28.**

[44] **التوبة آية 31 . وانظر كذلك التوبة آية 34**

[45] **النساء:97**

بل إن الله تعالى أكد فريضة إعمال العقل لمعرفة الحق والوصول إليه من خلال اعتبار تعطيل عمل العقل والسمع ذنبا ينال صاحبه جزاءه مع أصحاب السعير﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير﴾[46].

4- التوجيه إلى النظر في مختلف العلوم العقلية.

إن نصوص القرآن الكريم طافحة بالآيات الدالة دلالة واضحة إلى دراسة العلوم العقلية والبحث فيها، واستغلالها فيما ينفع الإنسان[47]، فمن العلوم البينة في التوجيه القرآني:

علم الطب وما تعرض له في علم الأجنة ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[48]، وفي التداوي بعسل النحل ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[49]،

وعلم الفلك والحساب في كل الايات التي تناولت حركة الكواكب مثل قوله تعالى ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الايات لقوم يعلمون﴾[50]، ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[51]. ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الايات لقوم يعلمون﴾[52] ﴿ وسخر لكم اللي والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لايات لقوم يعقلون﴾[53]

وعلوم الارض التي ذكر بها القرآن الكريم وختمها بأية خشية العلما، ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس

---

[46] الملك آية 10-11.

[47] تعرض السيوطي في النوع الخامس والستين تحت عنوان "في العلوم المستنبطة من القرآن الكريم" إلى مجموع العلوم ومنها العلوم العقلية او ما سماه بعلوم الاوائل، انظر، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، إبراهيم ، اصدار وزارة الشؤون الاسلامية والاوقاف والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية، ج4، ص 29

[48] المؤمنون آية 12-16. انظر كذلك ، الحج آية 5-7. السجدة آية 9. غافر آية 67. عبس آية 17-22

[49] النحل آية 69.

[50] يونس آية 5 .

[51] يس آية 37-40. وانظر كذلك ،

[52] الانعام آية 97.

[53] النحل آية 12.

والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلما﴾[54] ﴿ والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴾[55]

وعلم الكيمياء في حديثه عن ذي القرنين وما قام به في بنائه السد ﴿ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني افرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾[56] ﴿ وألنا له الحديد ﴾[57]﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾[58]، ﴿ صرح ممرد من قوارير﴾ [59].

وعلم النبات والزراعة في مواضيع كثيرة منها قوله تعالى﴿ وهو الذي انزل من السماء ماء فاخرجن ابه نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه إن في ذلكم لايات لقوم يومنون﴾[60].﴿ ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلف الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان في ذلك لذكرى لأولي الالباب﴾[61]﴿ سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لايعلمون﴾[62]﴿ وانزل من السماء ماء فاخرجن ابه ازواجا من نبات شتى كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لايات لاولي النهى﴾[63]

وعلم البحار في قوله تعالى: ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجوا منه حاية تلبسونها وتر الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[64]، ﴿ وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[65]

نتائج: أصالة الفكر العقلي في الخطاب القرآني.

---

[54] فاطر آية 28.
[55] النحل آية 15
[56] الكهف آية 96.
[57] سبا آية 10.
[58] الحديد آية 25.
[59] النمل آية 44.
[60] الانعام آية 99.
[61] الزمر آية 21.
[62] يس آية 33.
[63] طه آية 53–54.
[64] فاطر آية 12.
[65] النحل آية 14.

مما سبق ندرك ما تميز به الخطاب القرآني من تنويه بالعقل وتشريف لوظيفته في إدراك الحقائق الدينية والدنيوية، وأنه السبيل الارحب لمعرفة الله بواسطة الآيات الدالة عليه، وتنبيهه إلى النشاط الدائب وتجاوز الحواجز والعوائق المحبطة أو المثبطة لعزيمته وديمومة نشاطه، وتوجيهه إلى خوض غمار مختلف العلوم والمعارف التي تزداد بها قوة نظره، وتتسع بها آفاق رؤيته، ولا خوف من اتساع دائرة النشاط العقلي في كل المجالات، فلم يرد في القرآن الكريم أيَّة جملة أو لفظة تدين العقل، بل كانت الادانة موصومة بمن فرط في عقله واتبع أراء غيره وأهواء نفسه.

لقد كانت آيات الكتاب واضحة الدلالة في تنمية المنزع العقلي لدى المسلمين في تفاعلهم مع قضايا الكون والحياة، بما احتوته من نصوص سابقة الذكر وبما اتسمت به في ترسيخ الاعتماد على معادلة الصدق والبرهان ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[66].

أولا: تيار المتبنين.

1- أثر العلوم الوافدة في الحركة العلمية:

1-1- حركة الترجمة في العلوم العقلية.

كانت البدايات الأولى للتواصل العلمي في الشق المتعلق بالترجمة قد أخذ طريقه بدءا من العصر الأموي ممثلة في المحاولات التي شكلها **خالد بن يزيد بن معاوية**[67] في ترجمة بعض كتب الكيمياء[68]، والطب، والنجوم[69]؛ ثم تلتها فكرة الخليفة الأموي **عمر بن عبد العزيز**(99-101هـ/717-719م) في ترجمة بعض كنانيش الطب[70]؛ وأعقبتها أوامر الخليفة العباسي المنصور(136-158هـ/754-775م) لترجمة بعض مؤلفات العلوم العقلية[71]، بعد أن طلبها من ملك الروم[72].

---

[66] البقرة آية 111.

[67] انظر ترجمته في، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1398هـ/1978م، ج2، ص 224.

[68] النديم: الفهرست، مج2، ج1، ص 139، قال النديم:" وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة"، توفي خالد بن يزيد سنة 85هـ/704م.

[69] النديم: مص.س، مج2، ج1، ص 448. القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص 420.

[70] صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص110.

[71] ينقل المسعودي أن المنصور العباسي كان أول خليفة ترجمت له الكتب من الاعجمية إلى العربية ككتاب "كليلة ودمنة"، والسند هند، وكتاب أرسطوطاليس في المنطق وإقليدس، انظر كتابه مروج الذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، ج4، ص 521، انظركذلك، شمس الدين الذهبي: تاريخ الاسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1413هـ/1992م، ج24، ص 18. والجدير بالملاحظة أن النديم في الفهرست المجلد 1/1 ص 365 يذكر بأن الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك (104-125هـ) كان له كاتب يدعى سالم ويكنى أبو العلاء قد نقل من رسائل ارسطوطاليس إلى الاسكندر أو نقل له وأصلح هو، مما يؤكد أن عملية النقل كانت سارية في الخلفاء الامويين.

وكانت للخليفة العباسي **هارون الرشيد**(170-192هـ/786-809م) يد بيضاء عندما أنشأ بيت الحكمة[73]، وساهم بشكل أساسي في ترجمة الكتب القديمة التي وُجدت في أنقرة، وعمورية، وفي غيرها من بلاد الروم التي افتتحها المسلمون، وخاصة عن طريق طبيبه الخاص **يوحنا بن ماسويه**[74] الذي يرجع له الفضل في ترجمة مجموعة من كتب الطب، حيث وضعه هارون الرشيد "أمينا على الترجمة، ورتَّب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه، وخدم الرشيد والأمين والمأمون ومن بعدهم من الخلفاء إلى أيام المتوكل"[75]. وكانت له تآليف عظيمة القدر في الطب ساهم بها في ترسيخ العلوم الطبية، ككتاب البرهان، وكتاب الكمال والتمام، وكتاب الحميات، وكتاب الفصد والحجامة، وكتاب الجذام، وكتاب الحمام، وكتاب إصلاح الأغذية، وكتاب المعدة، وكتاب الأدوية المسهلة، والكناش المعروف بالمشجر وغير ذلك[76].

ولم تبلغ الترجمة أشدها وتستوي على ساقها إلا في القرن الثالث الهجري في عهد **الخليفة المأمون** (198-218هـ/813- 833م) عندما ترسخت الثقافة الإسلامية التي جعلت من الحكمة ضالة المؤمن يبحث عنها أنَّى كانت، وتأكدت أهمية المثاقفة بما عند الآخر، في ظل تنوع الرؤى الإسلامية، وتوسع آفاق المسلمين وتوجهاتهم العقلية بعد انتقال عاصمة الدولة من المدينة المنورة إلى دمشق، ثم إلى بغداد، والتحولات العقلية التي رافقت ذلك، لتصبح الترجمة مشروعا اضطلعت به الدولة، ووفرت له كل أسباب النجاح والاستمرار[77].

وكان من أبرز ماقام به **المأمون** تدعيما لهذه الوجهة إيفاده "البعوث العلمية لاستقاء الثقافة من مواردها الأصلية والبحث عنها في منابتها القاصية، والتشجيع على ترجمة أمهات الكتب الاجنبية من مختلف اللغات في الفلسفة والطب، والطبيعة، والفلك والرياضة، والسياسة ونظم الحكم"[78].

---

[72] **تحدث ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء، ص 279 أن المنصور استدعى جورجس لنقل الكتب الطبية إلى اللسان العربي، وكان أول من ابتدأ في نقلها. انظر كذلك، ابن خلدون: المقدمة، ص 532.**

[73] **يرجح أن هارون الرشيد هو منشئ بيت الحكمة في بغداد، انظر، النديم: الفهرست مج2، ج1، ص 234 في ترجمته لأبي سهل الفضل بن نوبخت. انظر كذلك، حسن إبراهيم حسن: مر.س، ج 2 ص 348، ج4، ص427. جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال، مصر، 1923، ج3، ص 228.**

[74] **يوحنا بن ماسويه نصراني سرياني، انظر ترجمته في، النديم: الفهرست، مج2، ج1، ص294 . ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، ص 465.**

[75] **القفطي: إخبار العلماء، مكتبة المتنبي ، القاهرة، ص 249. ابن جلجل: طبقات الأطباء، ص 65.**

[76] **صاعد: طبقات الأمم، ص 49. القفطي: مص.س، ص 65-66.**

[77] **صاعد: مص.س، ص 64. مرحبا محمد عبد الرحمن :الجامع في تاريخ العلوم، ص 215.**

[78] **مرحبا: مر.س، ص 215.**

وكان لفرط اهتمامه بهذا المشروع يستخدم مختلف الوسائل الميسرة لاستجلاب هذه الكتب من دبلوماسية الدوالة، إلى العطايا النفيسة، والهدايا العظيمة[79]؛ واستطاع أن يتحصل على مجموعة كبيرة منها، جعل لها مترجمين مهرة، وأغدق عليهم الأموال والعطايا.

ويلخص صاعد الأندلسي دور **المأمون** في ترسيخ جهود الدولة في الناحية العلمية فيقول :"لما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، تمم ما بدأه به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة، وقوة نفسه الفاضلة، فراسل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطلميوس، وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مهرة التراجمة، وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها، فنفقت سوق العلم في زمانه[80]، وقامت دولة الحكمة في عصره"[81].

ومن بين أشهر المترجمين في عهده **يوحنا بن البطريق** مولى الخليفة المأمون الذي "كان أمينا على الترجمة حسن التأدية للمعاني...وترجم كثيرا من كتب الأوائل"[82]. **وحنين بن إسحاق** الذي "أحضره المأمون وكان فتي السّنّ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربي، وإصلاح ما ينقله غيره، وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب مثلا بمثل"[83]. وحنين هذا كان "عالما بلسان العرب فصيحا باللسان اليوناني جدا بارعا في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين"[84]، و"هو الذي أوضح بحسن ترجمته كتب أبقراط، وجالينوس، ولخصها أحسن تلخيص"[85].

ونما هذا المشروع في عهد الخليفة المأمون أولا[86]، ثم توسع في عهد من جاء بعده من الخلفاء. وأثمرت هذه الجهود المتتالية مكتبة عربية زاخرة بالكتب المترجمة من مختلف اللغات وفي مختلف العلوم العقلية[87]، كانت

---

[79] انظر الوفادة التي أرسلها المأمون إلى ملك الروم بعد الرؤيا التي رآها في النديم: مص. س. مج2، ج1، ص 142.

[80] بالإضافة إلى المتواتر مما كان يفعله ويقدمه الخليفة المأمون من دعم مادي وأدبي، كانت هناك جلسات علمية في بلاط الخلفاء يحضرها فلاسفة وأطباء، تعرض فيها مختلف القضايا العلمية المتعلقة بالعلوم العقلية. عن جلسات الخليفة الواثق بالله (227–232هـ / 841– 846م) انظر، المسعودي: مروج الذهب، ج4 ص80–82.

[81] صاعد: طبقات الأمم، ص 64.

[82] ابن جلجل: طبقات الأطباء، ص 67.

[83] أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط 4، 1346هـ/ 1928، ج1، ص 377.

[84] ابن جلجل: مص.س، ص68. انظر كذلك ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص 279.

[85] صاعد: مص.س، ص 50. النديم: الفهرست، مج2، ج1، ص290. ابن جلجل: مص.س، ص 69. توفي حنين بن إسحاق سنة 260هـ/873م في عهد الخليفة المتوكل(232–247هـ/ 846– 861م).

[86] ظهرت بعض الإنجازات العلمية في عهد الخليفة المأمون، أهمها ولأول مرة الإرصاد الذي أقامه بمدينة الشماسية من بلاد دمشق من أرض الشام سنة 214هـ/ 829م، انظر، صاعد: مص.س، ص 69–70. القفطي: إخبار العلماء، ص 141، 177.

المورد الأساسي للعلوم عدة قرون[88]، كما كانت المنطلق الفعلي للحركة العلمية العقلية في ربوع العالم الإسلامي كله.

وكانت طبقات المترجمين تترى في الخلافة العباسية مؤكدة شمولية التوجه نحو استيعاب معارف العالم؛ فمن اللغات التي تمت الترجمة عنها اليونانية، والفارسية، والهندية، وغيرها. وقد ذكر صاحب الفهرست أسماء طائفة من المترجمين كانت تجيد فن الترجمة من اللغات الاخرى الى اللغة العربية بلغت عدتهم حتى زمان النديم[89] إثنين وستين (62) مترجما، بينهم خمسة وأربعون(45) من اليونانية والسريانية، وأربعة عشر مترجما(14) من الفارسية، وثلاثة (03) من الهندية[90]. وأفرد ابن أبي أصيبعة الباب التاسع من طبقاته للأطباء الذين نقلوا كتب الطب من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي فكان عددهم ثمان وأربعين(48) مترجما[91].

1-2 – حركة الترجمة لكتب الفلسفة:

بدأت حركة الترجمة لكتب الفلسفة متزامنة مع بداية الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور، الذي كان أول خليفة يقرب منه المنجمين والفلكيين، ويعمل بأحكام النجوم، وكما كان أول خليفة يترجم له الكتب إلى اللسان العربي، وتمت في عهده ترجمة بعض كتب ارسطوطاليس من المنطقيات وغيرها، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية[92]، وتم إخراجها للناس وبدا التأثر بها مبكرا في عهده ولم يظهر تأثيرها بوضوح إلا في عهد المهدي الذي راعه ما يجري من انتشار للافكار المناقضة لعقائد الاسلام[93]، فعزم على مطاردة الزنادقة، والبحث عنهم وكانت وصيته لولي عهد بالاستمرار في ملاحقتهم. وفي زمن الخليفة العباسي المأمون انتشر تعريبها بشكل واسع[94].

2- تبيئة العلوم المترجمة:

لقد ترجمت العشرات من المؤلفات في العلوم العقلية من طب وحساب وهندسة وهيئة ومنطق، ونظرة في كتاب الفهرست للنديم نكشف حجم المؤلفات التي ترجمت في العلوم العقلية، وكان لها اثر بارز في التأسيس لمناخ علمي متجدد، ولم يتوقف المسلمون عند حدود المادة المترجمة، بل استطاعوا هضمها، وفحصها، ونقدها،

---

[87] صاعد: مص.س، ص 68 –69.

[88] صاعد: طبقات الأمم، ص 70.

[89] ألّف النديم كتابه الفهرست في حدود سنة 377هـ/ 987م.

[90] انظر، النديم: الفهرست، مج2، ج1 ص 144– 152 .

[91] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص 279– 284 .

[92] المسعودي، مروج الذهب ج4، ص 521.

[93] المسعودي، مروج الذهب ج4، ص 521.

[94] ابن تيمية، فتاوى، ج9، ص 265.

فقبلوا صحيحها، ولفظوا باطلها[95]، وخالفوا كثيرا من آراء علمائها[96]، وتجاوزوها إلى معالم جديدة من الإبداع العلمي في إنتاج المعرفة، وكان من نتاج ذلك عشرات من المؤلفات التي حلت محل المترجمات، أو زاحمتها مزاحمة لصيقة وفي بعض الاحيان أصبحت هي المعتمدة في حقل الدراسات العقلية، وكمثال على ذلك كتاب القانون والارجوزة الطبية لابن سينا الذين أصبحا معتمد الدراسات الطبية تدريسا وعملا في المشرق والمغرب على السواء إلى نهاية العصر.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نورد كمثال على روح البحث الذي كان يتمتع به أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم[97] (كان حيا سنة 419هـ/1028م) الذي استطاع ان يتجاوز فترة الترجمة إلى الابداع من خلال الوقوف على بعض الاخطاء الموجودة في كتاب بطليميوس فألف كتابه الشكوك على بطلميوس الذي ذكر بالمنهج العلمي عند المسلمين في البحث العلمي[98].

3-أقطاب المتبنين:

وكان أهم مظهر من مظاهر هذا النشاط العلمي تلك الروح الإبداعية الفذة التي تفتقت عند المسلمين، متجاوزين في ذلك تلك المحطة الأولى، وأسسوا لمرحلة عقلية متميزة، كانت بغداد بالخصوص عاصمة عالمية للعلوم والمعارف، تهفو إليها قلوب العلماء والطلبة على السواء. وليس أدل على ذلك من تلك الجموع الغفيرة من العلماء الذين ازدانت بهم مدن المشرق، فكان على سبيل المثال مشاهير منهم: جابر بن حيان، وحنين بن إسحاق، وبني موسى بن شاكر، والكندي، والرازي[99] وابن سينا، وابن الهيثم، وثابت بن قرة، وابن بطلان وغيرهم، حيث كانت مؤلفاتهم تعم بلاد الإسلام قاطبة، وكانت الرصيد الذي اعتمدته الحضارة الإسلامية في القرون اللاحقة في المشرق والمغرب والأندلس، واستمر حضورها وتأثيرها إلى نهاية العصر الوسيط[100].

ثانيا: تيار الرافضين:

---

[95] انظر على سبيل المثال، كتاب الشكوك والمناقضات التي في كتب جالينوس لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي، وكتاب الشكوك على بطلميوس، لمحمد بن الحسن ابن الهيثم.

[96] ابن خلدون: المقدمة، ص 539.

[97] انظر ترجمة ظافية لابن الهيثم بما فيها مؤلفاته الكثيرة في، ابن ابي اصيبعة: مص.س، ص 550-560.

[98] ابن الهيثم: الشكوك على بطلميوس، تحقيق عبد الحميد صبرة ونبيل الشهابي، دار الكتب المصرية، القاهرة،1416هـ/ 1996م. ص3.

[99] انظر عن ترجمة الرازي،القفطي، اخبار العلماء، ص 206، ترجمة رقم 257. ترجمات لهؤلاء العلماء في ، النديم، الفهرست ، مج2/2.

[100] كان كتاب القانون في الطب من الكتب المقررة في مدارس مدينة بجاية حيث درسه الغبريني (ت714هـ/1314م) على شيخه ابن اندراس، انظر، الغبريني: عنوان الدراية، ص 75.

يجب التنبه بداية إلى أن هناك مجموعة من الفقهاء على امتداد العصر الوسيط شكلت تيار الرافضين للعلوم العقلية، وكان صوتها مسموعا ونافذا عبر القرون، وتجلى رفضها فيما كتبته من مؤلفات أو نصوص أو فتاوى، تشكلت من خلالها وعبر المنظومة العلمية صورة نمطية رافضة للعلوم العقلية بعض العلوم العقلية وتحريمها اعتمادا على ما شاع منها عند عوام الفقهاء باعتبارها والفلسفة من معين واحد[101]، واستمالة لما ترسخ من مفاهيم حولها في التيار الاجتماعي العام؛ ويبدو أن ذلك كان ممتدا منذ قرون خلت، فقد ورد في رسائل إخوان الصفا :" واعلم أن الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل الورع والمتنسكين قد نَهَوْا عن النظر في علم النجوم، **وإنما نَهَوْا عنه لأن علم النجوم جزء من علم الفلسفة**، ويكره النظر في علوم الفلسفة للأحداث والصبيان وكل من لم يتعلم علم الدين "[102]. وبقيت حلقات السلسة تترابط متتالية إلى نهاية العصر الوسيط، واستمرت نصوصها متبناة إلى العصور الحديثة والمعاصرة.

ويمكننا القول بأن لفيفا من الفقهاء الاخرين في الحقبة الوسيطة كانوا يتبنون هذا الطرح بنسب متفاوتة يصرحون به في بعض الاشارات التي توردها نصوص المصادر عرضا في الترجمات للفقهاء والعلماء من مختلف المذاهب الفقهية الإسلامية، ويبقى التركيز على الدور الذي لعبته هذه النصوص في رسم هذه الصورة الرافظة.

والسؤال الذي يطرح: هل كان لمجموع الفقهاء الرؤية نفسها في الرفض؟ أم أن لكلٍّ وجهته، ودرجة حدته؟ وهل طالت حركة الرفض كل العلوم العقلية، أم كان التركيز على بعضها دون الآخر؟

وسوف نعالج توجهات هذا التيار في العناصر التالية:

1- دوافع الرفض:

تعددت الدوافع التي كانت وراء رفض جانب من العلوم العقلية، ويأتي على رأسها:

1-1- الدافع العقدي: كان لترجمة الفلسفة اليونانية في عهد الخليفة العباسي المأمون أثر بارز في تسرب كثير من الأفكار والطروحات الفلسفية اليونانية إلى الثقافة الاسلامية عبر بعض العلماء والفلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا في المشرق، ونظر لأن بعض المواضيع قد تأثرت تأثرا بالغا بهذه الفلسفة وخاصة في الجانب الالهي فقد شابها الكثير من الأفكار التي تتعارض صراحة مع العقائد الاسلامية[103] ومسَّا بمقتضياتها في صفات الله وأسمائه، ومن أهم المسائل التي طالها الرفض بشدة إلى حد تكفير منتحليها ومروجيها: قولهم بقدم العالم أو أزليته، وأن الله لا يحيط علما بالجزئيات (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)، وأن البعث أو الحشر في الاخرة لا يكون بالأجساد ولكن بالروح فقط.

---

(101) انظر الآفة الأولى للعلوم الرياضية، الغزالي: المنقذ من الضلال،، ص80.

(102) رسائل إخوان الصفا، ج1، ص157.

103 ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط3، 1427هـ/ 2006 م، ج1(المقدمة) ، ص 597.

وقد اتخذ الفقهاء موقفا صارما تجاه هذه المسائل الثلاث، فأبو حامد الغزالي(ت505هـ) رد هذه المسائل في كتابه تهافت الفلاسفة واعتبرها غير ملائمة للإسلام بأي وجه من الوجوه، وأن معتقديها يعتقدون كذب الانبياء، وأن تكفيرهم بسببها لابد منه[104]. وكان يرى أنها مذهب أكثر الفلاسفة[105]، وفي نفس الاتجاه كان رأي السهروردي(ت632هـ) الذي نسج على منوال الغزالي، واعتبر تلقين المسلمين لهذه المسائل خطر عظيم تخشى غائلته[106]، وعن منتحلها "يجب مجانبته والتحذير منه حتى لا يفسد على مجالسيه الدين ويحطهم في دركات السجين"[107]، وبعد ذكر المعاندين لدين الله من أهل الكتاب والمجوس، رمى صراحة هذا النوع من الفلاسفة المسلمين بقوله:"وإنما الطامة الكبرى والفتنة العظمى قوم أبطنوا الكفر واستغشوا جلابيب الملة، وأظهروا أنهم من الملة"[108].

وبعبارات مماثلة كان توجه ابن قيم الجوزية(ت 751هـ) حول هذه المسائل الثلاث، وغيرها[109]، وبعد ان ذكَر بالاسم الفارابي وابن سينا– على الأرجح تأثرا بالغزالي[110] – قال :"وهذا المذهب من أفسد

---

[104] تهافت الفلاسفة، ص 254. كما كفر الفارابي وابن سينا في كتابه، المنقذ من الضلال، تحقيق محمود بيجو، المكتبة التوفيقية، 1992م، ص 44. ملاحظة هامة: 1– تناول ابن رشد الحفيد في كتابه تهافت التهافت ماحكم به الغزالي من تكفير ابن سينا، وحاول ان يبرئه بأنه كان يعتقد بأن الله تعالى يعلم الجزئيات وأنه نظر من زاوية أخرى، وقال بأن " الاصل في هذه المشاغبة تشبيه علم الله بعلم المخلوق"، انظر مناقشة ابن رشد كاملة في المسألة الثالثة عشرة ص 690– 711. .

2–يبدو أن اليهود ساروا عى نفس النسق الذي اصبح عليه المسلمون من محاربة الفلسفة، " فقد كتب الجاحظ في رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1384هـ/ 1964م، ج3، ص 314، :" إن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة كفر، والكلام في الدين بدعة، وأنه مجلبة لكل شبهة، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الانبياء، وأن الايمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة ، والخروج إلى الدهرية، والخلاف على الاسلاف، وأهل القدوة، حتى أنهم يبهرجون المشهور بذلك ، ويخرمون كلام من سلك سبيل أولئك"

3– ذكر النديم في كتابه الفهرست مج2/2 ص 138 :""كانت الفلسفة ظاهرة في اليونانيين والروم قبل شريعة المسيح –عليه السلام– فلما تنصرت الروم منعوا منها وأحرقوا وحرقوا بعضها وخزنوا البعض، ومنع الناس من الكلام في شيء من الفلسفة، إذ كانت بِضِدِّ الشرائع النبوية". فهل حدث للمسلمين ما كان في الامم السابقة تصديقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: في حديث:" لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى ؟ قال: فمن"، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1423هـ/2002م ، ص 856، حديث رقم 3456.

[105] الغزالي ، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة، ص 56.

[106] السهروردي عمر بن محمد، كشف الفضائح اليونانية، ص 97.

[107] السهروردي مصدر سابق، ص 97.

[108] السهروردي مصدر سابق، ص99–100. انظر حول اعتبار المنكرين لحشر الاجساد من الملاحدة، القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، مفيد العلوم ومبيد الهموم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1، 1405هـ/ 498م، ص 90.

[109] مثل الكلام على خوارق العادات والمعجزات، وانهم جعلوها جنسا واحدا وأدخلوا ما للسحرة وأرباب الرياضة والكهنة وغيرهم مع الانبياء والرسل في ذلك وجعلوا سبب ذلك كله واحد وان اختلفت الغايات والنبي قصده الخير والساحر قصده الشر، انظر مفتاح السعادة ص 1158.

[110] ابن قيم ينقل كثيرا في كتبه عن الامام الغزالي .

مذاهب العالم وأخبثها، وهو مبني على إنكار الفاعل المختار، وأنه تعالى لا يعلم الجزئيات، ولا يقدر على تعيير العالم"، ثم قال:"وبالجملة فهو مبني على الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"[111].

وما دون هذه المسائل الثلاث فللفقهاء أقوال أخرى أقل من درجة الكفر[112]، ولكن من الفقهاء السنة من يرون فيها بأنها"حكمة مشوبة بكفر"[113]، وأنها طريق إلى انحلال العقيدة[114] وإفسادها[115]، وجحد للشرائع [116]، وخبث المعتقد[117]، ودعوة إلى الالحاد[118] والزندقة التي تشك في الاديان والقول بسلطان العقل إلى أقصى حدوده، وتحكيم العقل فيما ليس للعقل فيه مجال[119].

وكان ينظر إلى الفلسفة وعلوم الأوائل(العلوم العقلية) بأنها أصول البدع[120] ، ومرض في الدين وهلاك فيه قلَّ من نجا منها[121]، ومنتحلها مدنِّس لنفسه[122]، ومخالف للسنة، ومحرف للشريعة.

ويبدو من الضروري إيراد نصين في غاية الأهمية حول صورة الفلسفة وعلوم الأوائل عند علمين من أعلام الأندلس وهما: أبو حيان الأندلسي، والإمام الشاطبي، وقد جمع هذان النصان كل الدوافع العقدية لرفض الفلسفة وعلوم الأوائل باعتبارها سبيلا لعداوة الأنبياء، وتحريف الشرائع، ومخالفة السنة، وأنها سموم العقائد، وشر العلوم، وخطأ عظيم وانحراف عن الجادة، والمسلمون منها براء، وهي أضر على المسلمين من اليهود والنصارى، ولا يصلحها إلا السيف، فيقول أبو حيان(ت 754هـ):"حكماء الفلاسفة الذين خلقوا

---

[111] ابن قيم الجوزية، مفتاح السعادة، ص 1158.

[112] الغزالي، تهافت الفلاسفة ص 254.

[113] ياقوت الحموي:معجم الادباء تحقيق احسان عباس ج1،445. انظر كذلك، توفيق الطويل:قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص105

[114] ابن خلكان في ترجمته ليحيى بن حبيش السهروردي (قتل سنة 587هـ) قال:" كان السهروردي المذكور احد اهل زمانه في العلوم الحكمية جامعا للفنون الفلسفية بارعا في الاصول الفقهية....وكان شافعي المذهب ويلقب بالمؤيد بالملكوت.. وكان يتهم بانحلال العقيدة والتعطيل ويعتقد مذهب الحكماء المتقدمين، واشتهر ذلك عنه... افتى علماؤها(حلب) بإباحة قتله بسبب اعتقاده وما ظهر لهم من سوء مذهبه"، انظر وفيات الأعيان، ج6، ص 260، 272.

[115] ص 314.ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج5، ص 311 في ترجمته لكمال الدين بن يونس حيث قال (ابن يونس) بان الناس ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن(المنطق) إلى فساد الاعتقاد.

[116] الغزالي : تهافت ص 39.

[117] الذهبي : سير اعلام النبلاءج13 ص 448

[118] ياقوت الحموي، معجمى البلدانج1، ص 288.

[119] أحمد أمين، ضحى الاسلام ، ج1، ص 155.

[120] ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص 196 . الذهبي ، ميزان الاعتزال، ج3، ص 654–655 . الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج17، ص 387 في ترجمته لمحمد بن علي بن الطيب

[121] هذا الكلام كان تعليقا من الحافظ الذهبي في ترجمته للفقيه القاسم بن احمد بن موفق اللرقي الاندلسي(ت 661هـ) نقلها السيوطي في بغية الوعاة، ج2، ص 250 ترجمة رقم 1912 حيث قال:" قال الذهبي:" ما كان إلا ذكيا فياليته ترك الاشتغال بعلوم الاوائل فما هي إلا مرض في الدين أو هلاك فقلَّ من نجا منها"، رغم انه صنف شرح المفصل في اربعة مجلدات وشرح الشاطبية. وراجعت تراجم الذهبي لوفيات هذه السنة في السير وتاريخ الاسلام وتاريخ الدول فلم اعثر على هذا النص.

[122] احمد بن يحيى المرتضى: طبقات المعتزلة، ص 119.

في مدة الملة الاسلامية وهو أحق بأن يسموا سفهاء من أن يسموا حكماء، إذ هم أعداء الانبياء والمحرفون للشريعة الإسلامية، وهم أضر على المسلمين من اليهود والنصارى، وإذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عن قراءة التوراة مع كونها كتابا إلهيا، فلأن ينهى عن قراءة كلام الفلاسفة أحق"[123]، ثم أورد ابياتا شعرية لبعض الشعراء يخاطب فيها الخليفة المنصور الموحدي حول الفلاسفة فيقول:

فجاهد في أناس قد أضلوا*** طريق الشرع بالعلم القديم
وحرق كتبهم شرقا وغـــربا*** ففيـــها كامنا شر العلوم
يدب إلى العقائد من أذاها*** سموم والعقائد كالجسوم
وفي أمثالـــها إذ لادواء *** يكون السيف ترياق السموم

وقال :

يا وحشة الاسلام من فرقــة *** شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها*** وادعت الحكمة والفلسفه

وقال:

قد ظهرت في عصرنا فرقة*** ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدي في الدين إلا بما*** سن ابن سينا او ابو نصر[124]

وأما الشاطبي(ت 791هـ) فيقول:" إن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة على أتم الوجوه وأكملها، فما خرج عن ذلك قد يظن انه على خلاف ذلك، وهو مشاهد في التجربة، العادية، فإن عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم، ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصب حتى تفرقوا شيعا...ومنها أن تتبع النظر في كل شيء وتطلب علمه من شأن الفلاسفة الذين يتبرأ المسلمون منهم، ولم يكونوا كذلك إلا بتعلقهم بما يخالف السنة، فاتباعهم في نحلة هذا شأنها خطأ عظيم، وانحراف عن الجادة"[125].

والغريب أن أبا حامد الغزالي نفسَه لم يسلم من التهجم عليه باعتباره دارسا للفلسفة، فقد ذكر الفقيه المالكي المازري(ت 536هـ) بأنه لم يكن مستبحرا في علم الكلام الذي هو أصول الدين، ثم قال:"ولقد فطنت لسبب عدم استبحاره فيها وذلك أنه قرأ الفلسفة قبل استبحاره في فن أصول الدين، فكسَّبَتْه قراءة الفلسفة

---

[123] **ابو حيان الاندلسي، البحر المحيط ج6، ص 46. وهذا النص نقل عمومه حرفيا السبكي مع تصرف وزيادات بيسطة، انظر معيد النعم، ص 64.**

[124] **ابو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 46-47.**

[125] **الشاطبي إبراهيم بن موسى الغرناطي ابو اسحاق، الموافقات، ج1، ص 46.**

جراءة على المعاني، وتسهيلا للهجوم على الحقائق، لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها وليس لها حكم شرع ترعاه، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها"[126].

ويجب الانتباه إلى فكرة في غاية الاهمية وهي أنه مهما كانت الثقافات الوافدة إلى مناخ الثقافة الاسلامية فإنها لا تخرج عن تفاعلين لا ثالث لهما، الأول: إما أن تتبيأ هذه الثقافة الوافدة وتتكيف بما يتوافق مع روح الثقافة الاسلامية (وهو المعتاد والمعروف في كل الحضارات)، وتتأقلم ثم تتحول إلى جزء من حركية الثقافة العامة وتصبح جزءا من كيانها ومسارها، وإما أن تصطدم بروح الثقافة الاسلامية فتعاني البعد والتشرد ثم المقاومة او الاضمحلال، لأن الثقافة الاسلامية لها أصولها العقائدية والفلسفية والنفسية المنبثقة من الوحي الكريم، ومهما كانت الاختلافات في الرؤى بين المسلمين في التصورات والتفاسير والاجتهادات فإنها تبقى في عمومها في إطار القواعد الاساسية التي يجمع عليها المسلمون عقيدة وشريعة، اي ان شكل الثقافة الوافدة يتقلب بين كونها أصلية أو ضرورية في صناعة الروح والوجدان، او مساعدة. ومن ثم يمكننا أن نفهم ونتفهم مسألة عدم القدرة على الفرز بين ما هو ثقافة مساعدة أو مكملة(أو غير مؤثرة في روح الحضارة) وبين ماهو ثقافة متأصلة او اساسية يمكنها ان تؤثر في بنية الروح.

والتفريق في الثقافات الوافدة إلى البيئة الاسلامية كان الفيصل فيها هو كيفية اعتبارها عند المسلمين بين كونها ثقافة أساسية او ثقافة مساعدة، أو بعبارة أخرى هل يكون استعمالها مفيد كالمصل، أو خطير كالسم[127]، ، وفي عصر الترجمة كان ثمة وضوح كبير في توجيه الترجمة إلى الثقافة المساعدة باعتبار ان الاسلام له ثقافته الاساسية التي لا يستقيها سوى من مصادر الوحي الكريم، بينما جاء بعد ذلك من اعتبر كل العلوم القديمة بمثابة علوم أساسية قد تؤثر في البيئة الاسلامية، وإذ نسجل واقعية هذا الطرح وحرص جهاز المناعة في صد كل ما يشكل خطرا على الروح الاسلامية فإننا من الجهة الثانية نؤكد الحاجة إلى إعادة النظر في المعايير التي وضعت للفرز او التي لم توضع لتبيان الفروق بين ما هو أساسي و بين ما هو مساعد او حاجي.

– من جهة أخرى كان المسلمون يعون جيدا الفرق بين الحكمة التي ينبغي ان يتفاعلوا معها إيجابا وبين الثقافة الحاكمة التي تغير رؤية الامة وروحها، أي ان هناك فارقا جوهريا بين الثقافة الحكمة والثقافة الحاكمة أو المتحكمة. وهذا هو مدار الاشتباك بين تيار الرافضين والتوفيقيين.

---

[126] **السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ج6، ص 241 في ترجمته لابي حامد الغزالي. وقد رد السبكي عليه بعد إيراده هذا النص ونصوص أخرى لابي بكر الطرطوشي، انظر ص 243.**

[127] **محمد أسد: الاسلام في مفترق الطرق ص 104.**

1-2- سلوك الاستهتار لدى الفلاسفة: يبدو أن صورة سلوكية نمطية شكلها الفلاسفة وبعض منتحلي العلوم العقلية في معاملتهم للفقهاء ودارسي العلوم الشرعية، وصارت من ألصق أوصافهم، وأشهر نعوتهم، وتمثلت عموما في أنهم يعتقدون في أنفسهم "التميز عن الأتراب والنظراء"[128] بانتحالهم الفلسفة، ويستجهلون من لم يكن له دراية بها [129]، وتقمصوا ذلك تقليدا لبعض الفلاسفة المرموقين، وما لهم من دقة في علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية، وأنهم منكرون للشرائع والنحل، فتجملوا باعتقاد الكفر تقليدا لهم وليس عن قناعة وتفكير[130]، وما كان منهم سوى الانخراط في سلكهم، و"رفضوا وظائف الاسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون"[131]، ولا تكاد تلقى أحدا منهم يحفظ قرآنا ولا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[132]. كما أنهم في كلامهم ما يدل على الانحلال من الازدراء بأهل العلوم الشرعية[133].

ولما شاعت عنهم هذه الاوصاف تم الربط بين هذه العلوم العقلية وبين سلوكيات أصحابها، وان هذه السلوك نتيجة لهذه الفلسفة التي تبنوها، فكان الرفض للفلسفة وعلوم الاوائل مرتبطا برفض هذه السلوك التي لا تتفق مع الاسلام.

1-3 – اعتبار العلوم العقلية علوما غير نافعة:

بعضا من الفقهاء الذين لهم نفوذ كبير في الثقافة الاسلامية في العصر الوسيط والممتدة إلى العصر الحديث والمعاصر أبدوا مواقفهم من العلوم العقلية، وكانت لهم رؤية خاصة نحوها تتجه نحو سلب المنفعة من هذه العلوم[134]، ورمي بعضها بالقصور، وبعضها الآخر بأنه لا حاجة للمسلمين بها البتة، وكان ذلك سببا في الزهد فيها، وابتعاد طلاب العلم عن الولوج إليها، والدعوة إلى نبذها، باعتبارها علوما لا منفعة فيها، وللوقوف على حجم هذه الظاهرة[135] نورد نصا في غاية الاهمية لشيخ الاسلام ابن تيمية الذي يعتبر رأيه خلاصة آراء من

---

[128] الغزالي: تهافت الفلاسفة، ص 37 .

[129] ابو حيان الأندلسي، البحر المحيط ج6، ص 46.

[130] عن الغزالي ، تهافت الفلاسفة بتصر ف ص 37-38.

[131] الغزالي: تهافت الفلاسفة، ص 37 .

[132] ابو حيان الأندلسي، البحر المحيط ج6، ص 46.

[133]

[134] يجب أن ينظر لهذه الفكرة "علوم غير نافعة" بأنها تصورات نابعة من تصور العلماء والفقهاء للعلوم العقلية وقيمة العلوم نفسها في عصورهم، وبيئتهم العلمية والثقافية، ومدى تأثيرها في مجتمعاتهم، ولو كانوا في عصرنا لكان لهم تصور مغاير تماما لقيمة هذه العلوم، ولكان لهم موقف آخر منها.

[135] كان للغزالي رأي خاص في العلوم العقلية لايصل إلى درجة القول بأن لا منفعة فيه، ولكن كلامه يوحي بأنها غير ضرورية، قال في كتابه جواهر القرآن، ص43، :"ولعلك تقول ان العلوم وراء هذه كثيرة كعلم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه وعلم

سبقه وله جمهوره العريض في الثقافة الاسلامية عبر القرون فيقول عن الحساب والهندسة بأنه "علم يقيني لا يحتمل النقيض البتة مثل جمع الاعداد وقسمتها وضربها ونسبة بعضها إلى بعض"، ثم قال:" فهذه الأمور وأمثالها مما يتكلم فيه الحساب أمر معقول مما يشترك فيه ذوو العقول، وما من أحد من الناس إلا يعرف منه شيئا فإنه ضروري في العلم ضروري في العمل، ...ولا ريب ان قضاياه كلية واجبة القبول لا تنتقض البتة"، ثم كتب بعد ذلك:" والمقصود هنا أن هذا العلم (الحساب والهندسة) **هو الذي تقوم عليه براهين صادقة لكن لا تكتمل بذلك نفس، ولا تنجو من عذاب، ولا يحصل لها به سعادة**، ولهذا قال ابو حامد الغزالي وغيره في علوم هؤلاء" هي بين **علوم صادقة لا منفعة فيها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة لا ثقة بها**[136]، وأن بعض الظن إثم، يشيرون بالأول إلى العلوم الرياضية وبالثاني إلى ما يقولونه في الالهيات وفي أحكام النجوم ونحو ذلك"[137] ، ثم قال :" إن حساب الفرائض علم معقول مبني على أصل مشروع، فتبقى فيه رياضة العقل وحفظ الشرع، لكن ليس هو علما يطلب لذاته ولا تكمل به النفس"[138]، **ثم بين أن هذه العلوم لا حاجة للمسلمين بها في تحقيق شرائع الاسلام** فقال:" وقد ذكر كثير من الفقهاء مسائل وذكروا انها لا تنحل إلا بطريق الجبر والمقابلة، **وقد بينا أنه يمكن الجواب عن كل مسألة شرعية جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم بدون حساب الجبر والمقابلة**، وإن كان أيضا حساب الجبر والمقابلة صحيحا وقد كان لأبي وجدي رحمهما الله فيه من التصنيف ما قد عرف...**فنحن بينا أن شريعة الاسلام ومعرفتها ليست موقوفة على شيء يتعلم من غير المسلمين أصلا، وإن كان طريقا صحيحا**، بل طريق الجبر والمقابلة فيها تطويل يغني الله عنه بغيره كما ذكرنا في المنطق، وهكذا كل ما بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم مثل العلم بجهة القبلة والعلم بمواقيت الصلاة والعلم بطلوع الفجر والعلم بالهلال فكل هذا يمكن العلم به بالطرق المعروفة التي كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يسلكونها، ولا يحتاجون إلى شيء آخر، **وأن كثيرا من الناس قد أحدثوا طرقا آخر وكثير منهم يظن أنه لا يمكن المعرفة بالشريعة إلا بها وهذا من جهلهم**"[139].

وفي نفس الاتجاه يفرق ابن القيم بين العلوم فيؤكد ان العلوم الرياضية صحيحة، ومصالحها من جنس مصالح الصناعات، وربما كانت الصناعات اصلح وأنفع من كثير منها، ثم تحدث عن العلم الطبيعي وأشار بأنه علم صحيح غايته معرفة العناصر وبعض خواصها وطبائعها ومعرفة بعض ما يتركب منها وما يستحيل من

السحر والطلسمات وغير ذلك ، فاعلم أنا انما أشرنا الى العلوم الدينية التي لا بد من وجود أصلها في العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر اليه أما هذه العلوم التي أشرت اليها فهي علوم ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد فلذلك لم نذكرها"

[136] لقد أورد ابن تيمية وانتقى مما كتبه الغزالي في مختلف كتبه، هذا النص الذي كتبه الغزالي في المستصفى ج1، ص 3، وهو نص

[137] ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص 133-135.

[138] ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص 137.

[139] ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص 258

المركبات إليها وبعض ما يقع في العالم من الآثار بامتزاجها واختلاطها ثم قال:" وأي كمال للنفس في هذا، وأي سعادة لها فيه".

وعن علم المنطق كان لابن تيمية في فتاويه جولات كثيرة مشيرا إلى انه كان سببا في نِفاق بعض الفضلاء وفساد علومهم، وأوضح بأن انتشار المنطق في العالم الاسلامي كان على يد ابي حامد الغزالي الذي أدخل مقدمة في المنطق اليوناني في أول كتابه المستصفى[140] ثم قال:"أما كتب المنطق فتلك لا تشتمل على علم يؤمر به شرعا وإن كان قد ادى اجتهاد بعض الناس إلى أنه فرض على الكفاية، وقال بعض الناس إن العلوم لا تقوم إلا به كما ذكر ذلك ابو حامد الغزالي فهذا غلط عظيم عقلا وشرعا "[141]، ثم أوضح موقفه منه بقوله:"وأما هو نفسه(المنطق) فبعضه حق وبعضه باطل، **والحق الذي فيه، كثير منه أو أكثره لا يحتاج** إليه، والقدر الذي يحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به، **والبليد لا ينتفع به، والذكي لا يحتاج إليه، ومضرته على من لم يكن خبير العلوم الاسلامية أكثر من نفعه، فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء، وكانت سببا في نفاقهم وفساد علومهم**"[142] .

وإذا توجهنا نحو الحافظ الذهبي فإنه يعتبر العلوم العقلية علوما لا تنفع[143].

1-4- جهل الفقهاء بالعلوم العقلية:

ربما جاز لنا أن نشير إلى أن من أسباب الرفض الذي كان يعانيه كثير من الفقهاء للعلوم العقلية هو أنهم كانوا بعيدين عن هذه العلوم، لم يدرسوها ولم يمارسوها، وجُلُّ ما يعرفونه عنها تم استقاؤه من المعلومات العامة التي أخذت من قِبَل غيرهم من الفقهاء والمحدثين أو غيرهم، أي أن الصورة المرسومة لها إنما هي نتاج غيرهم، وتبنوها كأمور صحيحة مسلَّمة، ولم يعاينوها بأنفسهم(مع استثناءات لبعضهم)، **وبتتبعنا لمجموعة منهم في كتب التراجم لم نجد لهم صلة بالعلوم العقلية في مسارهم التعليمي أو التدريسي أو التأليف.**

أما المتبنون للعلوم العقلية او التوفيقيون بين الشريعة والحكمة فجلهم درسوا العلوم العقلية بشكل أو بآخر، وكانوا يدركون حقيقتها وبراهينها ومراميها، ومن ثم كانت مواقفهم واضحة ومتبنية لها[144].

---

[140] ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج9، ص 184

[141] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 269.

[142] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 270.

[143] الذهبي :سير أعلام النبلاء، ج13 ، ص 448. في تعليقه على أحمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف البارع ذو التصانيف

[144] ومن الامثلة على ذلك ابو حامد الغزالي الذي "لازم إمام الحرمين (الجويني) وجدَّ، واجتهد، حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين والمنطق والفلسفة وأحكم كل ذلك" انظر، السبكي، طبقات الشافعية ج6، ص 191. كما نعلم أن الغزالي له باع في الهندسة وعلم الحيل فقد وصف ساعة مائية، وتعرض من خلالها إلى المبادئ التي كانت تتحكم في حركتها وشرح طريقة عملها بشكل ينم عن علمه في مسائل فيزياء السوائل، عندما تناول شرح اسم الله "الحكم" في كتابه "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق فضله شحاذة، دار المشرق بيروت، 1391هـ/1971م، ص 99-100. وذكَّر بوصف الإمام الغزالي للساعة المؤرخ الجزائي في كتابه جنى زهرة الآس، ص 53. ملاحظة: هذا الوصف للساعة يتفق مع المبدإ الذي وصفه الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم، ص 219

وفي هذا السياق يقول الغزالي:" **والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طبائع من يغلب عليهم الجهل**"[145] و"إذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض في التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك، فإن التحدي بالعلوم غريزة في الطبع لا يصبر عنها الجهال، ولاجاه كثر الخلاف بين الناس، ولو سكت من لا يدري لقل الخلاف بين الخلق"[146].

وفي التوجه ذاته يقول السبكي:" وقلَّ ما رأيت سالك طريق إلا ويستقبح الطريق التي لم يسلكها، ولم يفتح عليه من قِبَلها، ويضع عند ذلك من غيره، لا ينجو من ذلك إلا القليل من أهل المعرفة والتمكين"[147] .

ومن الأمثلة على ذلك أن محمد بن جعفر بن محمد البلْخي من أصحاب الحديث كان يضاغن الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي ويغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلسفة، فدسَّ عليه الكندي من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فدخل في ذلك فلم يكمل له، فعدل إلى علم أحكام النجوم، وانقطع شره عن الكندي بنظره في هذا العلم لأنه من جنس علوم الكندي[148].

وتحدث الغزالي عن أحمد بن حنبل بأنه كان أبعد الناس عن التأويل إلا في ثلاثة أحاديث، ثم قال:"وإنما اقتصر أحمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الاحاديث الثلاثة لأنه لم تظهر عنده الاستحالة إلا في هذا القدر، لأنه لم يكن ممعنا في النظر العقلي، ولو أمعن لظهر له وجوه كثيرة من التأويلات"[149].

وفي معرض حديث السبكي عن "قاعدة المؤرخين" التي نقلها عن والده، مفادها أن يكون المؤرخ "حسن العبارة عارفا بمدلولات الألفاظ"، علق عليه السبكي الابن صاحب الطبقات وقال:" ما أحسن اشتراطه العلم ومعرفة مدلولات الألفاظ، فلقد وقع كثيرون لجهلهم بهذا، **وفي كتب المتقدمين من جَرَحَ جماعة بالفلسفة ظنا منهم أن علم الكلام فلسفة**، إلى أمثال ذلك يطول، فقد قيل في أحمد بن صالح الذي نحن **في ترجمته أنه يتفلسف، والذي قال هذا لا يعرف الفلسفة**، وكذلك قيل في أبي حاتم الرازي، وإنما كان رجلا متكلما، وقرب من هذا قول الذهبي في المزي كما سيأتي انشاء الله تعالى في ترجمة المزي في الطبقة السادسة أنه يعرف مضايق المعقول، **ولم يكن المزي ولا الذهبي يدريان شيئا من المعقول**"[150].

وتحدث السبكي في ترجمته لإمام الحرمين الجويني عن نص نقله شيخه الذهبي(الذهبي شيخ السبكي) عن المازري في حق الجويني حينما شرح برهان الجويني، واتهم فيه الجويني، علق السبكي على ذلك فقال:" ما أقبحه فصلا مشتملا على الكذب بالجهل الصراح، وقلة الحق، مستحلا على قائله بالجهل بالعلم والعلماء، وقد

---

[145] **الغزالي، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة، ص 66.**

[146] **الغزالي، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة، ص 74.**

[147] **السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص 244.**

[148] **ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، ص 286.**

[149] **الغزالي، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص 44.**

[150] **السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج2 ص 24-25.**

كان الذهبي لا يدري "شرح البرهان"، ولا هذه الصناعة، ولكنه يسمع خرافات من طلبة الحنابلة فيعتقدها حقا ويودعها تصانيفه"[151].

وأفاض السيوطي(شديد الرفض للمنطق وغيره) في ذكر العلوم التي تبحر فيها ثم أفصح عن علاقته بالحساب فقال:"... وأما الحساب فهو أعسر شيء عليَّ، وأبعد عن ذهني، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله"[152].

1-5 -الاعتقاد بأن العلوم العقلية علوم غير المسلمين:

كانت حركة الترجمة للعلوم في العهد العباس الاول وخاصة في عصر المأمون قد فرضت نفسها على الدولة العباسية باعتبارها مشروع الدولة في مواجهة التيارات المختلفة، وكان أثرها بالغا في ترسيخ فكرة نقل العلوم والمعارف، وبعد أن ترجمت بعض القضايا الفلسفية وخاصة اليونانية وبروز التعارض الكبير بينها وبين العقائد الاسلامية استشعر المسلمون خطر هذا التوجه من الترجمة على عقائدهم وشرائعهم، باعتبار الاسلام مستغن بنفسه عن غيره من الثقافات، وخاصة بعد ظهور طبقة من الفلاسفة داخل الأمة الاسلامية تأثروا بهذه الترجمات وتبنوا أجزاءا من روح هذه الفلسفة في الالهيات والمنطق وأصبحوا يعتقدونها وينسجون على منوالها، بعيدا عن عقائد الاسلام[153]، وبمرور الزمن تأسست ردَّات فعل ضد هذه الفلسفات واعتبرت علوما خارجة عن روح الإسلام، وأعطي لها مصطلح **علوم الأوائل** الذي يعبر عن فترة ما قبل الاسلام مثله كمثل العصر الجاهلي، ويحمل مدلولا ثقافيا بأنه لا يصلح إلا لما قبل الاسلام، ولا يمكن أن يستفاد منه لأن الاسلام ينسخ ما قبله، وبعد أن توطنت هذه المعاني وتبرم من الترجمات أدخلت فيها جلُّ العلوم العقلية واعتبرت هي الاخرى من علوم الأوائل لدخولها في حركة الترجمة وانتشار بعض كتبها في إطار المنظومة العلمية الإسلامية، ومن ثمَّ أصبح التوجس من هذه العلوم البحتة كالتوجس من الإلهيات، ولم تتحرر عقلية النخبة الاسلامية من هذا التصور واضحِ الخللِ إلى نهاية العصر الوسيط، وحتى عصرنا الحالي الذي لا يزال يعتبر فيه بعض العلماء المسلمين بأن هذه العلوم العقلية هي علوم غربية؟؟

وقد أوردنا قبلُ أن الثقافة الاسلامية بقيت تنظر للعلوم العقلية على أنها علوم الأوائل، وهي نظرة تعبر عن تصور ثابت لها لَمْ يتطور منذ النديم في فهرسته إلى السيوطي في الاتقان في علوم القرآن، ويؤكد من جهة أخرى أن جمهور الفقهاء الذين يشكلون جهاز المناعة في الأمة الاسلامية كانوا بعيدين بشكل لافت عن هذه العلوم، ولم يعرفوا حقيقتها، ولم يحاولوا التقرب منها -مع بعض الاستثناءات- بل نفروا منها وناصبوا بعضها العداء،

---

[151] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج 6 ص 191.

[152] السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، حسن المحاضرة، ج1، ص 339.

[153] تناول المقريزي (ت 845هـ) في خططه الفلسفة وانتشارها في عهد الخليفة المأمون فقال عنها:" وأكثروا من النظر فيها والتصفح لها، فانجر على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة في الدين، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع، وزادتهم كفرا إلى كفرهم،" انظر، الخطط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/ 1998م، ج4، ص 191.

ورموا منتحليها بالبدع والزندقة والإلحاد، واتهامهم في دينهم، وأعلنوا عليهم حربا شعواء، مما ساهم في امتداد حالة اللاعلم بها أو إدراك كنهها، وبقيت صفة اعتبارها من العلوم غير الإسلامية مشكلة مزمنة كانت وراء تزهيد الناس فيها والبعد عنها واعتبارها من علوم الكفار. يقول ابن تيمية في سياق حديثه عن علمي الحساب والهندسة ما يشير إلى أنه يعتبرها علوما الآخر فيقول:" فنحن قد بينا أن شريعة الاسلام ومعرفتها ليست موقوفة على **شيء يتعلم من غير المسلمين أصلا**، وإن كان طرقا صحيحا، بل طريق الجبر والمقابلة فيها تطويل يغني الله عنه بغيره كما ذكرنا في المنطق"[154]، وصرح ابن تيمية بشكل غريب بأن علم الفلك هو علم يوناني فقال:" وعلم الهيأة هو أعظم علومهم الرياضية العقلية الذي جعل أرسطو أهله هم أئمة الفلاسفة وعلمهم أصل الفلسفة"، كما تحدث عن علوم الحساب والهندسة والنجوم وأمثالها من العلوم وأشار بأنها علومهم أي علوم اليونان[155]، وواضح أن المسألة هنا متعلقة بمدى معرفة ابن تيمية بهذا العلم، ومن جهة أخرى باحتوائه على كثير من الغبش العلمي الذي اصبح ينعت به علم الهيئة إجمالا.

والنصوص التي نوردها فيما يلي تؤكد بقاء الذهنية الاسلامية عند الفقهاء والنخبة على العموم محجوزةً، محجورٌ عليها في التصورات السابقة لهذه العلوم، وأصبحت جزءا من ثقافتها البديهية التي تتغذى منها لقرون:

ويقول لسان الدين ابن الخطيب(ت 776هـ)في وصيته لأبنائه في نص غاية في الكشف عما كان يختلج نفسية المجتمع عوامه ونخبته حول العلوم العقلية، فبعد أن قال:" خير العلوم علوم الشريعة وما نجم في منابتها المريعة"[156]، قال:"وإياكم **والعلوم القديمة(علوم الاوائل)**، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا، ورأيا ركيكا، **ولا يورث في العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصغار، وخمول الأقدار، والخسف بعد الإدبار** "[157].

وتناول القفطي (ت 646هـ) ترجمة محمد بن علي بن الطيب (ت 436هـ) بأنه " كان عالما بعلم كلام الاوائل قد أحكم قواعده، وقيد أوابده، وتصيد شوارده"، ثم ذكر تحوطه مما قد يسببه له ذلك فقال:" وكان يتقي أهل زمانه في التظاهر به، فأخرج ما عنده في صورة متكلمي الملة الاسلامية "[158].

---

[154] **ابن تيمية الرد على المنطقيين، ص 258.**

[155] **ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص 133–135. ابن تيمية يودرد ما كتبه ابو حامد الغزالي حول العلوم العقلية المذكورة في المتن، انظر، الغزالي، المستصفى، ج1ن ص 3.**

[156] **المقري: نفح الطيب، ج9، ص 233 ، (في الطبعة المحققة من قبل احسان عباس، ج7، ص 400–401،)، وهي من وصية ابن الخطيب لابنائه. انظرها كذلك في، المقري: أزهار الرياض، ج1، ص 229–230.**

[157] **المقري: نفح الطيب، ج9، ص233.**

[158] **القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الكتب العلمية ، ط1، 1426هـ/2005م، ص 221–222.**

وفي ترجمته لأبي الفتح موسى بن يونس الشافعي الملقب بكمال الدين(ت 639هـ) يقول ابن العماد الحنبلي(ت1089هـ) عنه: "وأكب على الاشتغال بالعقليات حتى بلغ فيها النهاية"[159]، ثم نقل قول ابن خلكان(ت681هـ) فيه:" كان يُتَّهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه"[160].

وتحدث الحافظ الذهبي(ت748هـ) عن شيخه بكر بن الدهان (ت 612هـ) فقال عنه بأنه كان "مضطلعا بعلوم كثيرة: النحو واللغة والتصريف والعروض ومعاني الشعر والتفسير، ويعرف الفقه والطب وعلم النجوم **وعلوم الأوائل**"[161]؛ ثم علق على ذلك بقوله :" قلت: لو جهل هذين العلمين لسعد"[162]، يقصد بهما: علم النجوم وعلوم الأوائل.

وعندما ترجم الذهبي لسيف الدين علي بن أبي علي بن محمد الآمدي (ت 631هـ) قال عنه:" وتفنن في **حكمة الأوائل** فرَقَّ دينه وأظلم، وكان يتوقد ذكاء"[163]، ثم قال:" ثم أقرأ الفلسفة والمنطق بمصر بالجامع الظافري، وأعاد بقبة الشافعي، وصنف التصانيف، ثم قاموا عليه ورموه بالانحلال، وكتبوا محضرا بذلك"[164].

2 – حركة الرفض في المشرق الاسلامي:

يمكننا توصيف مشهد الرفض للعلوم العقلية بأنه بدأ يتشكل مع البدايات الاولى لعملية الترجمة التي طالت ثقافة اليونان والفرس والهند بعد أن فتح المسلمون في وقت مبكر شمال الجزيرة العربية في الشام والعراق، وأصبحتا في عداد الاقاليم الإسلامية، وكانت البدايات الاولى للترجمة قد أخذت طريقها بدءا من العصر الأموي ممثلة في المحاولات التي شكلها خالد بن يزيد بن معاوية(ت 85هـ)[165] في ترجمة بعض كتب الكيمياء[166]، والطب، والنجوم[167]؛ ثم تلتها فكرة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز(99-101هـ) في ترجمة بعض كنانيش

---

[159] انظر، شذرات الذهب، ج5، ص 206،207.

[160] ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص316. إن هذه الترجمة هامة جدا في هذا الموضوع، انظرها كاملة من ص311–318. وموضوعات العقليات التي كان يتقنها كمال الدين كما جاءت في الوفيات هي: علوم الرياضة، والمنطق، والطبيعي، والطب، والهيئة، والجبر والمقابلة، والأريتماطيقي، والموسيقى والمساحة، والهندسة، والأوفاق.

[161] الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، ط11، 1417هـ/ 1996م، ج 22، ص 87.

[162] نفسه، ج 22، ص 87.

[163] نفسه، ج 22، ص 364.

[164] نفسه، ج 22، ص 365.

[165] انظر ترجمته في، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1398هـ/1978م، ج2، ص 224.

[166] النديم: الفهرست، مج2، ج1، ص 139، قال النديم:" وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة"، توفي خالد بن يزيد سنة 85هـ/704م.

[167] النديم: مص.س، مج2، ج1، ص 448. القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص 420.

الطب[168]؛ وفي عهد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك (104-125هـ) تمت ترجمة بعضا من رسائل أرسطو طاليس إلى الاسكندر من قبل كاتبه على ديوان الرسائل[169] أبي العلاء سالم بن عبد الرحمن(او بن عبد الله)[170]، وأعقبتها في الخلافة العباسية أوامر الخليفة العباسي المنصور(136-158هـ) لترجمة بعض مؤلفات العلوم العقلية، وكان أول خليفة ترجمت له الكتب من الاعجمية (الفارسية) إلى العربية ككتاب "كليلة ودمنة"، والسند هند، وكتاب أرسطوطاليس في المنطق وإقليدس [171] ،ترجمها له ابن المقفع[172]، بعد أن طلبها من ملك الروم[173].

كما كان في عهده محمد بن إبراهيم الفزاري أول من عني في علم النجوم في الملة الاسلامية[174]، ثم تتالت الترجمات بعد أن تحولت حركة الترجمة إلى مشروع اضطلعت به الدولة العباسية منذ زمن الخليفة هارون الرشيد(170-192هـ) الذي أسس بيت الحكمة[175]، ثم وصلت إلى غايتها زمن الخليفة المأمون(198-218هـ)[176]، حيث تمت ترجمة مختلف العلوم الفلسفية بها، "وانتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس، واشتهرت كتبهم في عامة الأمصار"[177] واقبل جموع الناس عليها، وتفاعلت معها فانتشرت العلوم العقلية المختلفة وألف فيها في الحساب والهندسة والهيئة والطب، كما خرجت توجهات فلسفية دعت إليها وتبنتها فئات على نسق الفلسفات اليونانية والفارسية في عقائدها ورؤاها وكان منها ما يتعارض مع عقائد الإسلام[178]، وبعضها كان يروم مكايدة الاسلام والغبش على عقائده مثل بعض النخب الفارسية التي تظاهرت بالإسلام وأبطنت عقيدتها

---

(168) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص110.

169 الجهشياري : الوزراء والكتاب ص 62.

170 النديم، الفهرست، مج1، ج1، ص 362. وكان سالم بن عبد الله استاذ عبد الحميد بن يحيى الكاتب وختنه، انظر، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج15، ص 55.

171 ينقل المسعودي أن المنصور العباسي ، انظر كتابه مروج الذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، ج4، ص 521، انظركذلك، شمس الدين الذهبي: تاريخ الاسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1413هـ/1992م، ج24، ص 18.

172 صاعد، طبقات الامم، شيخو، ص 49.

(173) تحدث ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء، ص 279 أن المنصور استدعى جورجس لنقل الكتب الطبية إلى اللسان العربي، وكان أول من ابتدأ في نقلها. انظر كذلك، ابن خلدون: المقدمة، ص 532.

174 القفطي، إخبار الحكماء ص 205 ترجمة رقم 256.

175 النديم: الفهرست مج2، ج1، ص 234 .

176 صاعد، طبقات الامم، ص 50. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج4، ص 191.

177 . المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج4، ص 191.

178 ابن تيمية، مجموع فتاوى، ج12، ص 353.

المجوسية، انتقاما من المسلمين الذي أزالوا دولتهم[179]، وتفشت مقالتهم وظهرت أفكارهم، وبات من الضروري على فقهاء الامة أن يكونوا بالمرصاد لمثل هذه الفلسفات.

2-1- سلاح الزندقة :

يبدو أن **الزندقة**[180] هو المصطلح الذي أصبح عنوانا كبيرا على مجابهة الافكار والعقائد المناقضة للإسلام تزامنا مع حلول بعض الترجمات الفارسية واليونانية، فقد شاع في بداية الدولة العباسية وكان يطلق حصرا على من اعتنق المانوية[181] أو الثنوية(عبدة النور والظلمة) باطنا والإسلام ظاهرا[182]، وكان غالبية أباء أو أمهات الزنادقة حتى منتصف القرن الثالث الهجري نصارى[183]، ثم اتسع مدلول هذا اللفظ حتى أطلق على كل ملحد أو مبتدع ممن يقول ببقاء الدهر او جاحد بالرسل والكتب، ولا يؤمن بالآخرة ولا بوحدانية الخالق[184]، ويتحذلق في المعقولات اليونانية المثيرة للشك والحيرة[185]، أو ما قد يفهم من ذلك من أن التساهل في الالهيات يؤدي إلى الزندقة[186]، ثم تطور مرة أخرى فأصبح يطلق على من كان مذهبه مخالفا لمذهب أهل السنة[187]، وأطلق أحيانا على من يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب وكان الاستهتار سمة هؤلاء[188]. والأغرب من ذلك أن وصف

---

[179] . المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج4، ص 198. احمد امين، ضحى الاسلام، ج1، ص 155.

[180] الزندقة كانت على عهد الساسانيين صنعة ينبز بها كل من يجرؤ على تفسير "الابستاق" تفسيرا جديدا غير رشيد(زند) وكانت تطلق على اصحاب ماني ومزدك. انظر ، بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1968، ص 184.

[181] عن المانوية، ينظر، الجاحظ، كتاب الحيوان ج4، ص 441-442. القاضي عبد الجبار ، المغني ج5، ص 10

[182] احمد امين، ضحى الاسلام، ج1، ص 154-155

[183] الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج3، ص315-316

[184] تعاريف الزندقة ، انظرها في الدارمي: الرد على الجهمية، ص 194. الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص 58. ابن تيمية، بغية المرتاد، ص 336 ويبدو أنه نقل التعريف حرفيا علا الغزالي. ابن منظور، لسان العرب ج 10، ص 147 مادة زندق.

[185] القزويني، مفيد العلوم ومبيد الهموم، ص 86.

[186] انظر تعليق المازري على الامام الجويني في كتابه ايضاح المحصول على برهان الاصول، تحقيق ، عمار الطالبي، دار الغرب الاسلامي، تونس ص 124-125. والنص نفسه نقله السبكي(ت771هـ) في طبقات الشافعية ج5، ص 192. " واول ما اقدم بين يدي الكلام على هذه المسألة تحذير الواقف على كتابه هذا ان يصغي إلى هذا المذهب الذي قال ، او يتساهل في خطوره بباله، فضلا عن التشكك في محاله، فإنه أحد أركان الدين ....يؤدي التساهل في إلى مطاعن الزندقة والملحدين، وبودي لو محوت هذا من الكتاب بما بصري لان هذا الرجل (الجويني) له سابقة قديمة وآثار كريمة في عقائد الاسلام والذب عنها وتشييدها وحسن العبارة عن حقائقها....".

[187] توسع مدلول الزندقة عند ابن تيمية ليشمل المتصوفة والفلاسفى وكل من تأثر بالفلسفة اليونانية او الفارسية، وكذا المعتزلة، ونلاحظ ان ابن تيمية ذكر في مجموع الفتاوى ج12، ص 352 بأن البخاري ترجم في آخر صحيحه بـ " باب كتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية"، وعند الرجوع إلى صحيح البخاري نجد العنوان التالي :" كتاب التوحيد" ولا توجد الاضافة التي بعدها، "ابن تيمية، مجموع فتاوى، ج12، ص 52-55. فهل اعتمد ابن تيمية على نسخة فيها هذا العنوان؟.

[188] احمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ج3، ص 213.

الزندقة لم يسلم منه حتى الأشاعرة[189]. كما تطور إلى كل من يعارض النظام السياسي، حيث أصبحت الدولة هي من تحدد الزنديق.

وكان الخليفة المهدي أول من أمر الجدليين (أهل صناعة الجدل)من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وإقامة البراهين على المعاندين وإزالة شبههم[190].

ويبدو أن الزندقة تحولت إلى حركة سياسية موظفة ضد الخلافة العباسية خاصة في زمن الخليفة المهدي حيث تراجع الحضور القيادي للفرس بعد مقتل ابي سلمة الخلال وابي مسلم الخرساني فظهرت المانوية، والقرامطة والحركات المناوئة للدولة، وكانت هذه المعارضات السياسية ذات اللبوس الفكري تشكل خطرا محدقا بعقيدة المسلمين وبأركان بالدولة، وكان الاجراء الذي قام به المهدي منذ سنة 167هـ تتبع الزنادقة والبحث عنهم في الافاق وإبادتهم بمختلف الطرق، وأسند المهمة لأحد الموثوقين من رجاله وهو عمر الكلوذي[191]. وأوعز إلى خليفته من بعده موسى الهادي بتجريد السيف ضد حركة المانوية بالخصوص لتغلغلها في المجتمع العراقي[192].

وبعد أن شاع مصطلح الزندقة وترسخ (تجذر وتأصل)في المجتمع وعند العامة على أنه دعوة إلحادية تخرج صاحبها من الدين، ويكون ذريعة ومبررا لاستباحة دمه، أصبح يوظف من كل الاطراف ذريعة لتصفية خصومهم سواء في ذلك الشعراء والعلماء والفقهاء والأمراء والخلفاء[193]، فيكفي أن يتهم الانسان بالزندقة ليصطف المجتمع والعامة ضده، ويجد نفسه منبوذا ومعرضا لكل الأخطار[194]، واستغلت السلطة السياسية هذه الصورة المرتبطة بالدين، فاستعملت الزندقة كسلاح ضد خصومها ومعارضيها، وكانت السعاية بين الموظفين في الدولة والوشاية بين الوزراء ورمي بعضهم بالزندقة سبيلا إلى الاطاحة به[195]، وكانت في كثير من الاحيان تتعسف في استعمالها[196].

---

[189] فقد وصمها به ابن قدامة المقدسي (ت 620هـ) في رسالة مناظرة في القرآن العظيم، تحقيق عبد الله بن يوسف الجديع، شركة الرشد، شركة الرياض، ط2، 1418هـ/ 1997م، ص 34.

[190] توفيق الطويل، النزاع بين الدين والفلسفة، ص 106.

[191] الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج8، ص220، أحداث سنة 165هـ. وص167 في احداث 168هـ، وص 190 في أحداث 169هـ.

[192] انظر حديث المهدي لابنه الهادي حول استئصال المانوية في، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج8،ص 220 أحداث سنة 170هـ.

[193] احمد امين، ضحى الاسلام ج1، ص 157.

[194] تحدث ابن حيان(ت 469هـ) في المقتبس عن عباس بن فرناس (ت 274هـ)وذكر اختراعاته العلمية المميزة وقال عنه في ص 242 :" ونبل في جميع العلوم القديمة والمحدثة، احكم لسان العرب، وأحذق صنعة الشعر الحسن، وفاق في علم الفلسفة والنجوم والهيئة"، وقال عنه في ص 239:" وكثر عليه الطعنان في دينه"، ومنهم قرينه مؤمن بن سعيد الشاعر الذي تولة كبر هذه الفرية، ثم قال عنه في ص 243:" وعقدت على عباس بن فرناس وثيقة بالزندقة " وشهدت عليه من العامة، ولكن القاضي برأه.

[195] التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج8، ص 267.

[196] اتي المهدي برجل رمي بالزندقة فشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسوله ، وأن الاسلام دينه عليه يحيا وعليه يموت، فدافعه المهدي بأنه يقول ذلك مدافعة عن نفسه، وأمر بضربه، فلما اوجعوه قال له:" إن الله بعث محمدا صلى الله

وقد تعرضت مجموعة من العلماء إلى هذا النوع من التهم الملفقة بالزندقة، وتمت تصفيتهم على أساسها، رغم ان البحث في حيثيات القضايا يؤكد أن الاشكالية كانت سياسية بالدرجة الاول ويتم توظيف بعض الاخطاء لشرعنة حكم التصفية وتبريرها أمام العامة، باستعمال سيف الزندقة، ومن الامثلة البارزة في ذلك مقتل عبد الله ابن المقفع الفارسي(ت142هـ) بعد اتهامه بالزندقة، ولما يتجاوز 36 سنة من عمره[197]. وكذلك بشار بن برد الذي قتل سنة 168هـ عن نيف وسبعين سنة [198]لأسباب سياسية واتهامه بالزندقة، وكلاهما قتلهما الخليفة العباسي المهدي. وكذا ما فعل بالحلاج[199].

وفي السياق ذاته يأتي مقتل أحمد بن الطيب السرْخسي سنة 286هـ على يد الخليفة العباسي المعتضد، لقد كان السرخسي من تلاميذ الفيلسوف الكندي" متفننا في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب "[200] وله 29 مؤلفا جلها في العلوم العقلية موزعة بين الطب والفلك، وسمع الحديث وروى شيئا منه[201] كما تولى الحسبة أيام المعتضد ، وتسرع الذهبي في القول بأنه من بحور العلم الذي لاينفع، ثم تحدث عن مقتله من قبل المعتضد فقال:" ثم إن المعتضد انتخى لله وقتل السرخسي لفلسفته وخبث معتقده، فقيل إنه تنصل إليه وقال قد بعت كتب الفلسفة والنجوم والكلام وما عندي سوى كتب الفقه والحديث، فلما خرج قال المعتضد : والله إني لأعلم أنه زنديق فكل ما زعم رياء"[202]، ولا ندري كيف قبل الذهبي هذه الرواية رغم ورود السبب الحقيقي الذي قتل من أجله السرخسي وهو سبب سياسي واضح إذ أورد النديم بأن " سبب قتل المعتضد إياه اختصاصه به فإنه أفضى إليه بسر يتعلق بالقاسم بن عبد الله (وزيره) وبدر علم المعتضد فأفشاه واذاعه بحيلة من القاسم عليه مشهورة، فسلمه المعتضد إليهما فاستصفيا ماله واودعاه المطامير"[203]، نعم لقد اورد ياقوت الحموي رواية مفادها أنه دعا المعتضد إلى مذهب الفلاسفة، ثم نقل ما اورده النديم[204]، ولكن اي منطق يستطيع أن يقبل بأن يدعو السرخسي الخليفة ذاته إلى مذهب الفلاسفة، وهو يعلم ان الدولة العباسية لها باع طويل في قتل من تريد

عليه وسلم يقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله، وأنت جلست تطالبني وتضربني حتى أكفر فتقتلني" قال : فخجل المهدي ، وعلم أنه على خطأ، ينظر التنوخي المحسن بن علي، نشوار المحاضرة، ج8، ص 267.

[197] انظر تفاسيل مقتله سياسيا في ، الجهشياري، الوزراء والكتاب ص 103–105.

[198] الاصفهاني، الاغاني تحقيق إحسان عباس وآخرون، دار صادر بيروت، ط3، 1429هـ/2008م، ج3،ص 171.

[199] انظر تفاصيل الحيثيات في النديم، الفهرست، ج1 /1 ص 675–679.يورد بأنه كان جسورا على السلاطين مرتكبا للعظائم يروم إقلاب الدول. والمسألة وضاحة بان التصفية سياسية ووظف فيها الزندقة. التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج6، ص 87–88 ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج2، ص 140، فيه تفاصيل ضافية.

[200] النديم، الفهرست، ج2، ص 195–196. ابن ابي اصيبعة، عيونن ص 293.

[201] ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، ص 293. ابن حجر، لسان الميزان ج1، ص 489 ترجمة رقم 556.

[202] الذهبي، سير أعلام، ج13، ص 449.

[203]النديم، الفهرست، ج2، ص 195–196. انظر كذلك ، المسعودي، مروج الذهب ، ج2، ص 482. احداث سنة 283هـ.

[204] ياقوت الحموي، معجم الادباء ج1 ، ص 187 ترجمة رقم 95.

باتهامهم بالزندقة، ولذلك عندما ترجم له ابن حجر ذكر رواية النديم ولم يذكر الثانية[205]. ونفس الرواية ينقلها ابن ابي اصيبعة عن النديم[206].

ورغم أننا نرجح أن جل ما تمت تصفيته باسم الدولة إنما كان عن اقتراف سياسي ومصاددة لسياسة الدولة، لاننا وجدنا لفيفا من العلماء المنتحلين للفلسفة والمنطق وغيرها من العلوم العقلية لم يطالهم العنف ولم يتهموا بالزندقة، وإن كانوا مغمورين لغلبة تيار الرافضين[207]، إلا ان التيارات بلا شك كانت منتشرة وتعمل في السكون ولذلك أمر الخليفة المعتمد(255- 279هـ) "ألا يقعد على الطريق ولا في مسجد الجامع قاص، ولا صاحب نجوم ولا زاجر ، وحُلِف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة"[208]، وهو إجراء ينم عن توسع الحركات السرية التي توظف الدجل والشعبذة.

ويبدو ان الاوضاع المذهبية والسياسية قد اخذت في التطور حتى كان عصر القادر بالله (381-422هـ) الذي حاول أن يقنن الاعتقاد في مرسوم كتبه وهو ما اشتهر بالاعتقاد القادري وكان يقرأ كل جمعة في حلقة من أصحاب الحديث وبحضرة الناس مدة خلافته، وبرزت الصراعات الطائفية بين السنة والشيعة فيما امر به القادر من محضر يتضمن القدح في نسب العبيدية وان سلفهم كفار زنادقة يعتقدون مذهب الثنوية[209].

وتمت شرعنة قتل المتلبس بالزندقة من قبل بعض الفقهاء بشروط تجاوزتها السلطة الحاكمة، فهاهو الدارمي(ت 280هـ) الذي كان معاصرا لهذه الاحداث يقول:" فالجهمية عندنا زنادقة من أخبث الزنادقة، نرى أن يستتابوا من كفرهم، فإن أظهروا التوبة تركوا، وإن لم يظهروها تركوا، وإن شهدت عليهم بذلك شهود فأنكروا ولم يتوبوا قتلوا "، ثم ذكر بمقتل الجعد بن درهم من قبل الامير خالد بن عبد الله القسري الذي ضحى به في عيد الاضحى[210]. وفي نفس هذا التوجه لا يرى ابن تيمية قتل الزنديق إذا أخفى زندقته، ويرى قتله إذا أظهرها[211].

وتطورت الفتاوي بتطور الاوضاع السياسية والمذهبية، فقد كان حكم الحنفية في الزنادقة أشد منه عند الشافعية [212]، فكثير من الحنفية يرى أن المرتد إذا تاب قبلت توبته ولم يقتل، وأما الزنديق فإذا تاب لم تقبل توبته وقتل وخالفهم في ذلك الشافعية فقالوا لايقتل من أظهر التوبتة من الزنادقة.

---

[205] ابن حجر، لسان الميزان، ج1، ص 489

[206] ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء ، ص 293.

[207] انظر تراجم علماء العلوم العقلية عند كل من : ابن ابي اصيبعة، البيهقي، الصفدي، السيوطي..

[208] الطبري، تاريخ الامم، ج10، ص 28 احداث سنة 279هـ.

[209] ابن الجوزي، المنتظم ، ج15، ص 279-282 احداث سنة 433هـ ن محمود شاكر، التاريخ الاسلامي مج5، ج1 185-186.ص

[210] الدارمي: الرد على الجهمية، ص 189.

[211] ابن تيمية مجموع فتاوى شيخ الاسلام، ج13، ص 21

[212] احمد أمين ضحى الاسلام ج 1 ، ص 158.

لقد تحولت الزندقة من موقف ضد المناوئين للعقيدة الاسلامية إلى سيف شحذه السياسيون وغيرهم لتصفية الحساب مع خصومهم، وخرج من مدلوله الذي وضع له إلى تهمة تُسلَّط على كل مناوئ، ومن ثم فإن الزندقة وظفت توظيفا يتنافى مع الاخلاق والمبادئ الاسلامية التي تلزم المسلم إحقاق الحق والوقوف عند أحكام الله في الدماء التي تعتبر من اعظم الجرائم. وتحولت إلى إشكالية ساهمت في تموقع السلطة وفقا لمتطلباتها ومقتضيات الرأي العام الذي تخشاه من جمهور المسلمين.

ولقد طالت شرارة هذه الفكرة التي لا علاقة لها بالمصطلحات الاسلامية كل شرائح المجتمع بما فيهم الفقهاء عندما لا تستريح السلطة إلى وجودهم، وعوض ان تكون حماية للدين كانت سببا في إزهاق أرواح الجسورين.

2-2- أقطاب الرافضين في المشرق:

لقد ساد في العصر الوسيط مناخ يتسم بالتوجس من العلوم العقلية عموما باعتبارها علوما دخيلة على المسلمين مفسدة لعقائدهم[213]، ومرتبطة بشكل أساسي بالموروث اليوناني، ، وقد اسس لهذا التوجه سلسلة من الفقهاء، وسوف نقتصر على بعض الفقهاء الذين كانت بصماته قوية في الثقافة الاسلامية وفي صناعة هذا المناخ.

- ابو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح (577-643هـ)[214]:

الفقيه الشافعي كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث، تولى التدريس بمدارس الشام، واشتغل الناس عليه وانتفعوا بعلمه، وله مؤلف مشهور " علوم الحديث" أو مقدمة ابن الصلاح.

ذكر ابن خلكان بأن شيخه ابن الصلاح كان يجل الفقيه الشافعي كمال الدين موسى بن يونس المتمرس في العلوم العقلية ويبالغ في الثناء على فضائله وتعظيم شأنه، وتوحده في العلوم[215]، وتوجه إليه وسأله أن يقرأ عليه شيئا من المنطق سرا، فأجابه إلى ذلك، وتردد عليه مدة فلم يفتح عليه فيه بشيء فقال له:" يا فقيه، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن. فقال له: ولم ذاك يا مولانا؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك

---

[213] ابن خلكان، وفيات ج5، ص 313.

[214] ترجمته في ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، ج22، ص 393. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج3، ص 243 ترجمة رقم 411. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص 84-85. الذهبي، سير اعلام النبلاء ، ج23، ص143. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص 326 ترجمة 1229. ابن كثير، البداية والنهاية ج13، ص 168 احداث سنة 643هـ. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 313.

[215] قال عنه ابن خلكان في ترجمته في وفيات الاعيان ج5، ص 311-312:" جمع من العلوم ما لم يجمعه أحد، ، وتفرد بعلم الرياضة، ...وكان الفقهاء يقولون إنه يدري اربعة وعشرين فنا دراية متقنة، ....وكان يدري فن الحكمة: المنطق والطبيعي والالهي، وكذلك الطب، ويعرف فنون الرياضة من اقليدس، والهيئة والمخروطات، والمتوسطات والمجسطي ، وانواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والاريتماطيقي وطريق الخطأين، والموسيقى والمساحة "

الخير، وهو ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك، ولا يحصل لك من هذا الفن شيء، فقبل إشارته وترك قراءته"[216] .

كان لابن الصلاح موقف صارم اتجاه الفلسفة والمنطق، ومنتحليهما، ويرى بأنها سبب الضلال ، وعماء البصيرة، ودعا إلى ما يشبه الثورة عليهم وعزلهم عن المجتمع لانهم يشكلون خطرا لانظير له على عقائد المسليمين ودعا السلاطين إلى عزل من يظهر عليه اهتمام بالفلسفة او التصنيف فيها من المدارس، ودعا إلى التعامل مع المعتقدين لها بالسيف أو التوبة منها.

وكان لهذه الفتوى أثر بالغ على من جاء بعده من العلماء والفقهاء، في استمرار هذا الموقف[217]، ونظرا لأهمية هذه الفتوى في توضيح موقف ابن الصلاح من العلوم العقلية نوردها كاملة، فعن سؤال ورد إليه بخصوص من يشتغل بالمنطق والفلسفة تعليما وتعلما، أجاب:

" الفلسفة أسٌّ (أو رأس) السَّفَهِ والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأي فن أخزى من فن يعمي صاحبه – أظلم قلبه– عن نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم، مع انتشار آياته المستبينة، ومعجزاته المستنيرة".

إلى أن قال :"وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين، والسلف الصالحين، وسائر من يقتدى به من أعلام الائمة وسادتها، وأركان الامة وقادتها، قد برأ الله الجميع من مغرة ذلك وأدناسه، وطهرهم من أوضاره

وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الاحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية– ولله الحمد– فالاافتقار إلى المنطق أصلا، وما يزعمه المنطقي للمنطق من أمر الحد والبرهان فقعاقع قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن، لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية. ولقد تمت الشريعة وعلومها وخاض في بحار الحقائق والدقائق علماؤها، حيث لامنطق ولا فلسفة ولا فلاسفة، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به، فالواجب على السلطان – أعزَّه الله وأعز به الاسلام وأهله– أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم، ويخرجهم من المدارس ويبعدهم، ويعاقب على الاشتغال بفنهم، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الاسلام لتخمد نارهم، وتنمحي آثارها وآثارهم، يسر الله ذلك وعجله، ومن أوجب الواجبات عزل من كان مدرس

---

[216] **ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج5 ، ص 313.**

[217] **تاثر السيوطي لفتوى ابن الصلاح وترك دراسة المنطق بعده، انظر السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص 339.**

مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والاقراء لها، ثم سجنه والزامه منزله، ومن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم فإن حاله يكذبه والطريق في قلع الشر قلع أصوله وانتصاب مثله مدرسا من العظائم جملة والله تبارك وتعالى ولي التوفيق والعصمة وهو أعلم"[218].

كما أن موقفه من الفلاسفة المسلمين لايختلف عن موقفه من الفلسفة فهم شياطين الانس ولا يجوز مطالعة كتبهم، وبالموافقة حيازتها، فقد سئل عن حكم من يطالع كتب ابن سينا في الفلسفة، وهل كان من العلماء فكان جوابه:" لا يجوز لهم ذلك، ومن فعل ذلك غرر بدينه وتعرض للفتنة العظمى، ولم يكن (ابن سينا) من العلماء، بل كان شيطانا من شياطين الانس، وكان حيران في في كثير من أمره"[219].

– شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي(539– 632هـ):

الفقيه الشافعي[220] والامام العالم القدوة والعارف والمحدث شيخ الاسلام أوحد الصوفية، شيخ وقته في علم الحقيقة وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، وظهر له القبول من الخاص والعام واشتهر اسمه، وقصد من الاقطار[221]، وكانت له مؤلفات منها عوارف المعارف، وأخرها كتاب في الرد على الفلاسفة بعنوان" كشف الفضائح اليونانية". ويأتي السهروردي ضمن علماء التصوف السنيين الذين لهم نفوذ كبير في الثقافة الاسلامية في العصر الوسيط ولا يزال تأثيره في شرائح مختلفة.

ألف السهروردي كتابه كشف الفضائح كرد فعل قوي ضد الفلسفة اليونانية ومن يدرسها من الطلبة الذين بات عددهم يزداد كما يبدو، وقد وصمها بشتى النعوت تجمعها العداء للدين الاسلامي ، وبعد أن بيَّن صنف العلوم إلى كلي وجزئي اكد ان الكلي هو العلم المنزل من الله على الانبياء، تحدث عن العلم الجزئي وقال فيه:" والجزئي قنع به المحبوسون في مطامير الهندسة، المرتهنون بعلم الافلاك والنجوم والطبائع"[222]، ثم كان موقفه من بعض العلوم العقلية شديدا عندما قال:" فالمدارس وبقاع الارض التي تحصنت بشريف الجوار قمن ان تصان عن شوب الاكدار وتطهر عن ذكر علوم الفلاسفة فيها وما يغاير علوم الشريعة وينافيها، فالمنتحلون لها أعداء الاسلام والانبياء والمنكرون لصحيح الاخبار والانباء"، ثم أكد ان الشغف بالفلسفة اليونانية هو استدبار لعلوم الشريعة، واستهانة بالعلوم المستنبطة من الكتاب والسنة، ووصل موقفه الحد الذي دعا فيه إل مقاتلتهم بالأسنة[223].

---

[218] ابن الصلاح، فتاوى ومسائل ابن الصلاح، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ/1986م، ج1، ص 209 . وانظرها الفتوى مختصرة في ، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص 143.

[219] ابن الصلاح، فتاوى ومسائل ابن الصلاح، ج1، ص 209.

[220] ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج3، ص 446.

[221] الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج22، ص 373–374.

[222] صص66.

[223] 69

ولا شك ان هذا الموقف له تداعياته على مستوى طبقات واسعة في العالم الاسلامي في العصر الوسيط الذي تميز في القرون اللاحقة للسهروردي بشيوع التصوف وتأثيره في ثقافة مريديه.

– احمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني(661–728هـ) [224]

شيخ الاسلام ابن تيمية من مشاهير علماء السنة الاجلاء الذين كان لهم باع كبير في الذود عن دين الله وقد اجتمعت فيه خصال العالم العامل المجاهد ، واختصاصاته كثيرة فإلى جانب الحديث فقد برز في الفقه والتفسير والملل والنحل والفلسفة الاسلامية في مقارعته للفلسفة اليونانية، وتصدى للانتصار لمذهب السلف[225]، والف عشرات الكتب، وكان له اتباع في العصر الوسيط[226] ، ورغم سكون حركته بعد موته إلا انها بقيت تنمو ببطء حتى ظهرت من جديد وأصبحت أفكاره منتشرة بشكل لافت في العالم الاسلامي في العصور الحديثة والمعاصرة.

يتسم موقف ابن تيمية من العلوم العقلية بين صحيح لا منفعة فيه وبين فاسد يجب التحذير منه ومقاومته، ويتفق ابن تيمية إلى حد بعيد مع الغزالي في تكفير المسائل الثلاث المتعلقة بازلية الكون وحشر الارواح دون الاجساد وعلم الله بالكليات وليس بالجزئيات، وكثيرا ما يستدل به في مقارعة اهل الفلسفة ويبين سداد وجهته ضد معارضيه من الفقهاء المسلمين كابن رشد الحفيد[227]،

وما يتعلق بالفلسفة عموما فإن رأيه فيها ليس رافضا في المبدأ لان الرجل تغلغل فيها ويعرفها من داخلها ومن ثم فإن مبدأ الفلسفة عنده قائم اعتمادا على ما يطرح فيها من أفكار فيقول:" أما نفي الفلسفة مطلقا او إثباتها فلا يمكن إذ ليس للفلاسفة مذهب معين ينصرونه ولا قول يتفقون عليه في الالهيات والمعاد والنبوات والشرائع بل وفي الطبيعيات والرياضيات، بل ولا في كثير من المنطق، ولا يتفقون إلا على ما يتفق عليه جميع بني آدم من الحسيات المشاهدة والعقليات التي لا ينازع فيها أحد"[228] ، وبذلك يجعل الفلسفة قابلة للنقاش وفقا للافكار التي تعرض فيها، .

وفيما يتعلق بالمنطق الارسطي فقد ناقشه بشكل واف واوضح فيه ما وسعه من أباطيل وكان موقفه منه واضحا في قوله:" وما زال نظار المسلمين يعيبون طريق اهل المنطق ويبينون ما فيها من العي واللكنة وقصور العقل وعجو النطق، ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني اقرب منها الى تقويم ذلك، ولا يرضون ان

---

(224) انظر ترجمته في، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج7، ص 11– 22. الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق نبيل أبو عبشة وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، ط1، 1418هـ/1998م، ج1، ص233– 253، ترجمة رقم 118.

225 لمقريزي، الخطط ، ج4، ص 192–193.

226 المقريزي، الخطط ، ج4، ص 192–193.

227 ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج1، ص 356.

228 ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج1، ص 357

يسلكوها في نظرهم ومناظراتهم لا مع من يوالونه ولا مع من يعادونه"[229]، ثم أوعز بتأسف السبب في انتشار المنطق في المنظومة العلمية الاسلامية إلى ابي حامد الغزالي الذي أدخله في مقدمة كتابه المستصفى و"زعم أنه لايثق بعلمه إلا من عرف هذا المنطق ...صار كثير من النظار يدخلون المنطق اليوناني في علومهم حتى صار من يسلك طرق هؤلاء من المتأخرين يظن ان لا طريق إلا هذا"[230].

وأبدى ابن تيمية موقفه بوضوح من المنطق بأنه علم لامنفعة فيه، بل جعله مضرة على من لم يحط بعلوم الاسلام[231]، بقوله:" أما كتب المنطق فتلك لا تشتمل على علم يؤمر به شرعا وإن كان قد أدى اجتهاد بعض الناس إلى أنه فرض على الكفاية، وقال بعض الناس ان العلوم لا تقوم الا به كما ذكر ذلك ابو حامد ، فهذا غلط عظيم عقلا وشرعا . اما عقلا فان جميع عقلاء بني ادم من جميع اصناف المتكلمين في العلم حرروا علومهم بدون المنطق اليوناني، واما شرعا فانه من المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام ان الله لم يوجب تعلم هذا المنطق اليوناني على اهل الايمان، **واما هو نفسه فبعضه حق وبعضه باطل، والحق الذي فيه كثير منه او اكثره لا يحتاج اليه والقدر الذي يحتاج اليه منه فاكثر الفطر السليمة تستقل به، والبليد لاينتفع به، والذكي لايحتاج اليه، ومضرته على من لم يكن خبيرا بعلوم الانبياء اكثر من نفعه فانه فيه من القواعد السلبية المفسدة ما راجت على كثير من الفضلاء وكانت سبب نفاقهم وفساد علومهم**"[232]."

وفي نفس التوجه كان موقف ابن تيمية من علم الكلام رافضا له، ويراه بدعة وفاسدا[233]، وبعد ان قرر بان السلف لم يذموا الكلام ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي امر الله به رسوله والاستدلال بما بينه الله ورسوله ولا ذموا كلاما هو، بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة، وهو المخالف للعقل أيضا وهو الباطل ثم قال:" **وأما الحذاق العارفون بحقيقته فعلموا انه باطل عقلا وشرعا وانه ليس بطريق موصل الى المعرفة بل انما يوصل من اعتقد صحته الى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه اوصله الى الحيرة والشك**"[234]. وقد وضح ابن تيمية سبب تبديع علم الكلام بقوله في كتاب آخر قال فيه:"وهذا من بدع أهل الكلام الذي ذمه السلف وعابوه، فإنهم ناظروا الفلاسفة في العلم الالهي في مسالة حدوث العالم

---

[229] ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج9، ص 184.

[230] ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج9، ص 184.

[231] ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج9، ص 1

[232] ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج9، ص 270.

[233] ابن تيمية الفرقان بين الحق والباطل ص 124..

[234] ابن تيمية الفرقان بين الحق والباطل ص 124. رغم وضوح موقف ابن تيمية من علم الكلام إلا ان رائد جمال عكاشة وآخرون في كتابهم ، الفلسفة في الفكر الاسلامي قراءة منهجية ومعرفية ص 263 يقول بان ابن تيمية هو الذي جدد علم لم الكلام ومنحه شرعية وقبولا فقد حاول التوفيق بين الاراء السابقة وعمل على فض الاشتباك القائم بين الطرفين، والحقيقة ان المؤلف لم يكمل النص الذي احال عليه والذي يؤكد ان ابن تيمية مع الرأي القائل ببدعية وبطلان علم الكلام وفساده.

وإثبات الصانع، ومسائل المعاد والنبوات وغير ذلك بطرق فاسدة حائدة عن مسلك الشرع والعقل وكان ذلك من اسباب ضلال كثير من الناس"[235]. وهو في ذلك متناغم مع موقف ابن عبد البر الاندلسي[236].

وفيما يتعلق بعلم الهيئة فيجعله ابن تيمية علما يونانيا[237] ويضعه بين صحيح لا يدفع[238] ولكنه قليل الفائدة وباطل واضح الرفض، وقسم ابن تيمة النجوم إلى نوعين : حساب واحكام، " فأما الحساب فهو معرفة اقدار الافلاك والكواكب وصفاتها ومقادير حركاته وما يتبع ذلك فهذا في الاصل علم صحيح لاريب فيه كمعرفة الارض وصفتها ونحو ذلك، ولكن جمهور التدقيق منه كثير التعب قليل الفائدة . ....واما الاحكام التي هي من جنس السحر فمن الممتنع ان يكون نبي من الانبياء كان ساحرا... اذ فيه من الكذب والباطل ما ينزه عنه العقلاء الذين هم دون الانبياء بكثير"[239].

وفي هذا السياق يحذر ابن تيمية اهل الكلام من رفض الحقائق الفلكية الصحيحة والواضحة لانهم بذلك سيكونون سببا في ضلال كثير من الناس[240] الذين يظنون ان كلام هؤلاء من الشرع مع رفضهم للحقائق الفلكية، ومما يجرئ الملحدين على الاسلام، وذكر امثلة من ذلك مثل كروية الافلاك التي هي ثابتة عند كل العلماء ، ومثل كسوف الشمس ونحو ذلك من الامور الطبيعية[241].

وقد سقنا قبل من ان ابن تيمية يعتبر ان علم الحساب والهندسة تقوم عليهما براهين صادقة[242] ولكنها لا تكمل بذلك نفس ولا تنجو من عذاب ولا يحصل بها سعادة وهي بين علوم صادقة لا منفعة فيها وبين ظنون كاذبة لا ثقة فيها[243].

أما موقف ابن تيمية من علم الكيمياء فهو من القائلين ببطلانها، حيث ألف في ذلك رسالة "في إبطال الكيمياء وتحريمها ولو صحت وراجت"[244]، وأفاض في شرحها، وأفتى بتحريمها في مجموع فتاويه، وانتهى في ذلك

---

[235] ابن تيمية ، الرد على المنطقيين، ص 260.

[236] ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله ص 938-942-943

[237] ابن تيمية: الرد على المنطقيين، ص 389.

[238] ابن تيمية: الرد على المنطقيين، ص 260. ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج35، ص 175..

[239] ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج35، ص 181.

[240] يبدو ان ابن تيمية قد اقتبس هذه الفكرة من الغزالي عندما عرض الافتين التين تظهر ممن ينكر العلوم العقلية الصحيحية ، انظرها في المنقذ من الضلال ص . وقد سار ابن قيم الجوزين على خطى الغزالي ويتطابق معه في ذكر هاتين الافتين، انظ مفتاح دار السعادة ص 1412-1418.

[241] ابن تيمية: الرد على المنطقيين، ص 270-274.

[242] ابن تيمية: الرد على المنطقيين، ص 213.

[243] ابن تيمية: الرد على المنطقيين، ص 135.

[244] انظر، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج7، ص19. والصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج1، ص 246.

بقوله :"وهي محرمة باطلة"[245]، و"الكيمياء أشد تحريما من الربا"[246]. ثم خلص لتبرير ذلك بقوله :"وبالجملة فاستقراء هذين الأصلين (الذهب والفضة) أن المخلوق لا يكون مصنوعا، والمصنوع لا يكون مخلوقا، وأن الأنواع المفضلة بخواصها لا يمكن أن ينقل منها نوع إلى نوع آخر، يظهر ذلك بالعقل والدلالة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع أيضا"[247].

والخلاصة ان ابن تيمية في كل ما ذهب إليه لم يخرج عن رفضه لهذه العلوم إما بكونها علوما صحيحة ولكنها غير نافعة، او باطلة لا يمكن دراستها بل رفضها ودفعها.

- **محمد بن أبي بكر بن أيوب الشهير ابن قيم الجوزية (691- 751هـ)** [248]:

الفقيه والمحدث والاصولي والمفسر، والصوفي، تلميذ ابن تيمية، اخذ عنه خلق كثير ولا يزال أثره قويا في العالم الاسلامي.

وعلى نسق شيخه ابن تيمية يرى ابن قيم ان المنطق لو كان علما صحيحا كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله اضعاف حقه، وفساده وتناقض أصوله واختلاف"[249]. وبعد أن ذكر مجموعة من متكلمي الاسلام الذين عارضوا المنطق الارسطي مثل ابي سعيد السيرافي النحوي والقاضي عبد الجبار والجبائي والجويني وغيرهم ثم قال:" وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير اوضاعه وشوش قواعده"[250]، ثم اورد قصيدته في منطق اليونان نذكر منها[251]:

واعجبا لمنطق اليونان*** كم فيه من افك ومن بهتان

مخبط لجيد الاذهان*** ومفسد لفطرة الانسان

ومبكم للقلب واللسان*** مضطرب الاصول والمباني.

---

(245) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج 29، ص373.

(246) نفسه، ج 29، ص374.

(247) نفسه، ج 29، ص383. وانظر كذلك إشارة إلى ذلك في كتابه الحسبة في الاسلام أووظيفة الحكومة الاسلامية، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، بلا تاريخ، ص 18-19.

(248) انظر ترجمته في، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج8، ص287..

249 ابن قيم ، مفتاح دار السعادة، ص 444.

250 ابن قيم ، مفتاح دار السعادة، ص 449.

251 ابن قيم ، مفتاح دار السعادة، ص 448.

والملاحظ أن ابن قيم الجوزية ما إن يجد من يستعمل مصطلحات المنطق اليوناني إلا ويشن عليهم حملة واسعة[252]، ويبدو أن المشكلة تحولت إلى صراع اصطلاحات يريد ابن قيم ان تكون للمسلمين اصطلاحاتهم التي تغنيهم عن اصطلاحات المناطقة اليونان.

ورغم ان ابن قيم افاض في الحديث عن النظر في خلق الله تعالى للانسان منذ ان كان جنينا في بطن امه الى ان استوى ثم مختلف النعم التي سخرها له الله تعالى، مما هو مبثوث في علوم الكون، إلا أن موقف ابن قيم الجوزية يتجه نحو عدم استساغة أن تدرج بعض العلوم ضمن فروض الكفاية التي كان بعض العلماء في عصره يدعو إليها من علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحات وعلم أصول الصناعات كالفلاحة والحدادة والخياطة ونحوها وكذا المنطق، وقال بان " كل هذا هوس وخبط فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله"[253].

واعتمد ابن القيم في ابطال التنجيم على ما كتبه ابن سينا في كتابه الشفا والنجاة وساق استدلالات من ابي نصر الفارابي لتدعيم رايه[254].

وعلى نفس اتجاه شيخه ابن تيمة يرى ابن القيم بطلان علم الكيمياء وألف هو الآخر كتابا في "بطلان الكيمياء من أربعين وجها"[(255)].

ويمكننا ان نضيف **الحافظ الذهبي(ت748هـ)** الذي اوردنا نصوصا سابقة تؤكد اعتباره للعلوم العقلية بانها بدعة[256] ، **والسيوطي(ت 911هـ)** الذي رغم نقله في كتابه التبيان عن العلوم المستفادة من القرآن الكريم إلا انه كان وحاول دراسة علم الحساب دون جدوى لانه كان عليه كالجبل، فإنه في جانب المنطق كان موقفه منه التحريم والذم، متبعا لفتوى ابن الصلاح فيه ولم يكن منشئا، فقال:" وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئا في علم المنطق ثم القى الله كراهته في قلبي وسمعت ان ابن الصلاح افتى بتحريمه فتركته لذلك فعوضني الله تعالى

---

[252] انظر ما عابه ابن القيم على ابن رشد عندما استعمل مصطلحات المناطقة في تفسير قوله تعالى﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن﴾ ، قال فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا احد من ائمة التفسير بل ولا من تفاسير المسلمين وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والايمان، انظر ابن قيم ، مفتاح دار السعادة، ص 433. والتفسير ص 344.

[253] ابن قيم، مفتاح دار السعادة، ص 444.

[254] ابن القيم : مفتاح دار السعادة ، ص 1172–1182– 1183.

[(255)] ابن العما الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 170، و ج8، ص 290.

[256] الذهبي ، ميزان الاعتدال ج3 ص 654–655.

عنه علم الحديث الذي هو اشرف العلوم "[257]:" فقد كنت قديما في سنة 867هـ ا 868هـ ألفت كتابا في تحريم الاشتغال بفن المنطق سميته " القول المشرق ضمنته نقول ائمة الاسلام في ذمه وتحريمه"[258].

3- حركة الرفض في الغرب الاسلامي:

شهدت نخبة الغرب الإسلامي(المغرب والأندلس) تفاعلا كبيرا مع العلوم العقلية، كان إلى حد بعيد يسير في نفس الاتجاه والوتيرة مع المشرق الاسلامي باعتبار أن حركة الرحلة للطلبة والعلماء بين هذين الجناحين كانت تعمل عملها في نقل المواقف وتلاقح الأفكار والعلوم، وما يسري بين الشعوب المتجانسة عادة من العدوى الثقافية التي تنتشر بين المشرق والمغرب كعدوى انتقال الفلسفة إلى الغرب الاسلامي. وكانت الاندلس بالخصوص تعج بالعلماء العقليين في مختلف التخصصات بفعل الاجواء المتفتحة على العلم والحاضنة لعلمائه.

هذه الأجواء السياسية المنفتحة على العلم ساهمت في صناعة مناخ علمي جعل من قرطبة مركزا حضاريا عظيما للازدهار المادي، والتقدم الإداري، والنشاط الفكري[259]، يترقب الثقافة المشرقية بحب وتقدير، ويتوق إلى حضورها بشغف منقطع النظير، وساهمت في إغراء علماء المشرق وخاصة بغداد بالرحلة إلى الأندلس والاستقرار بها، فكانوا يُتلقون بالترحاب والإعجاب، أو على الأقل بالامتثال في ربوع شبه الجزيرة الايبيرية[260].

وفي كتاب "**طبقات الأمم**" لمؤرخ الأفكار **صاعد بن أحمد بن صاعد** الأندلسي(ت 462هـ/ 1069م) وهو من علماء الأندلس وفلكيي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؛ هذا الكتاب الذي "يعد بحق تأريخا شاملا للعلوم"[261] العقلية، "وأرشيفا حقيقيا للمعلومات"[262] في هذا العصر؛ لاحظ **صاعد** مسار حركة العلوم العقلية في الأندلس عندما أشار إلى الدور الريادي لهذا الأمير الأموي الذي كان سببا في استثارة النفوس نحو العلم، حيث شهد عهده حركة نشطة في طلب العلوم، فيقول: "ولم يزالوا يظهرون ظهورا غير شائع إلى قريب من وسط المائة الرابعة"[263] .

وما أن حلَّ القرن الرابع الهجري/العاشر في عهد الخليفتين الأمويين في الأندلس عبد الرحمن الناصر(300-350هـ)[264]، والحكم المستنصر(350-366هـ)[265] تحول الاهتمام بالعلوم عموما والعقلية خصوصا

---

[257] **السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص 339.**

[258] **السيوطي، صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام ص 33. وانظر كذلك ص 47.**

[259] **محمد أحمد أبو الفضل: دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1417هـ/1996م، ص 359.**

[260] **ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، ص 53.**

[261] **خوان فيرنيه: العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس، من كتاب، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، 1420هـ/ 1999م، ج2، ص 1301.**

[262] **نفسه، ج2، ص 1301.**

[263] **صاعد الأندلسي: طبقات الامم، ص 85.**

[264] **انظر ترجمته في، ابن عذاري: البيان، ج2، ص 156.**

من توجهات فردية، ومبادرات شخصية، إلى مشروع اضطلعت به الدولة، وسعت للتمكين له بكل ما تملكه من قوة.

لكن رغم هذه الظروف المواتية التي سادت في زمن الخليفتين سالفي الذكر، كانت تتبطنها هواجس كامنة ضد الفلسفة وخاصة في بعض العلوم العقلية في جانب الالهيات وفي علم النجوم ، فما إن توفي المستنصر وجاء الحاجب المنصور محمد بن ابي عامر، حتى خرجت إلى السطح تلك الهواجس واستغلها استغلالا سياسيا حتى يشرعن بقاءه بفعل يكون مرضيا للفقهاء والعامة، وقد سجل لنا صاعد الأندلسي ما قام به ابن أبي عامر لما استبد بالحكم في الأندلس فقال :" وعمد أول تغلبه عليه(على هشام المؤيد ابن المستنصر) إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها. وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصه من أهل العلم بالدين، وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة من المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل[266] حاشا كتب الطب والحساب، فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المباح بمذاهب الأندلس إلا ما أفلت منها في أثناء الكتب وذلك أقلها، فأمر بإحراقها وإفسادها. فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر، وهيل عليها التراب والحجارة، وفعل ذلك تحببا إلى عوام الأندلس، وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم مذمومة بألسنة رؤسائهم. **وكان كل من قرأها متهما عندهم بالخروج عن الملة[267]، مظنونا به الإلحاد في الشريعة، فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك، وخمدت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم**"[268].

وفي عهد علي بن يوسف المرابطي امير المسلمين، كان المناخ العلمي متجها نحو الفقه المالكي في فقه الفروع أما علم الكلام فقد دان أهل زمانه "بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند امير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وانه بدعة في

---

[265] انظر ترجمته في، ابن عذاري: مص. س، ج2، ص233.

[266] علوم الأوائل حددها ابن حزم في رسائله، وهي: الفلسفة وحدود المنطق، وعلم العدد، وعلم المساحة، وعلم الهيأة، وعلم الطب، انظر، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1407هـ/1987م، ج3، ص 131– 133.

[267] مسألة الإخراج من الملة كما تبدو قديمة في الذهنية المغربية والأندلسية، فيذكر أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي(ت379هـ/989م) في كتابه طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1404هـ/1984م، ص 241، عند ترجمته للطلاء المنجم إسماعيل بن يوسف، بأنه كان غاية في النجامة، وله اهتمام واسع بالكيمياء، ثم قال :" ومات بالأندلس هاربا من صاحب دار الضرب، وكان اتهم بعمل الدنانير والدراهم، وكان يرمى بالخروج عن الملة". وفي ترجمته لإدريس بن ميتم ص 306 قال عنه :" كان نحويا دقيق النظر، بصيرا بحد المنطق، كثير المطالعة لكتب الأوائل، حاذقا بعلم الحساب والتنجيم... وكان يرمى بالخروج عن الملة".

[268] صاعد: طبقات الأمم، ص 88.

الدين...فكان يكتب في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه"[269].

وفي القرن السادس ورغم التغير الذي حدث في المنظومة العقلية الموحدية وتبنيها للفلسفى والعلوم العقلية وخاصة في عهد يوسف بن عبد المؤمن إلا أن تأثير الفقهاء الرافض لبعض العلوم كان مهيمنا على الفقهاء والعامة، وكان الذهنية المغاربية دوما في توجس دائم لم تستطع إزالته سياسة الموحدين في عهد يوسف بن عبد المؤمن وقد أورد ابن سعيد نصا في غاية الاهمية حول حقيقة الذهنية المغاربية من بعض العلوم التي يبدو عليها التناقض مع عقائد المسلمين فيقول:" وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم، ولا يُتظاهر بها خوف العامة، فإنه كلما قيل "فلان يقرأ الفلسفة" أو "يشتغل بالتنجيم" أطلقت عليه العامة اسم "زنديق"، وقَيَّدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب[270] هذا الشأن إذا وجدت"[271].

وكانت ملاحظات لسان الدين بين الخطيب(ت776هـ) دقيقة في تصوير هاجس الحذر من العلوم العقلية العابر للقرون عندما كتب وصيته في نص غاية في الكشف عما كان يختلج نفسية المجتمع عوامه ونخبته حول العلوم العقلية، فبعد أن قال:" خير العلوم علوم الشريعة وما نجم في منابتها المريعة"[272]، قال :" وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا، ورأيا ركيكا، **ولا يورث في العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصغار، وخمول الأقدار، والخسف بعد الإدبار.** وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجدال، هذا **ابن رشد** قاضي المصر ومفتيه، وملتمس الرشد ومواليه، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة[273]، **فلا سبيل إلى اقتحامها**

---

[269] **المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، ص 131. ونفس الرأي يذهب اليه السبكي عند الحديث عن علي بنيوسف بن تاشفين، :" واهل المغرب ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه" انظر طبقات الشافعية الكبرى ج6، ص 116.**

[270] **انظر نكبة ابن رشد الحفيد مستفيضة في ، ابن عبد الملك الانصاري، الذيل والتكملة**

[271] **المقري: نفح الطيب، ج1، ص181. وفي هذا الإطار لا يُستبعد أن يكون من أسباب مقتل الشاعر ابن خميس محمد بن عمر سنة 708هـ/1308م اهتمامه بعمل الكيمياء وشهرته بذلك، في ظل هذا المناخ، انظر، يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص109.**

[272] **المقري: نفح الطيب، ج9، ص 233 ، (في الطبعة المحققة من قبل احسان عباس، ج7، ص 400–401،)، وهي من وصية ابن الخطيب لابنائه. انظرها كذلك في، المقري: أزهار الرياض، ج1، ص 229–230.**

[273] **انظر ما جاء في ترجمته عند، ابن الزبير: صلة الصلة، ج5، ص 383–384، حيث قال :" كان من أهل العلم والتفنن، أخذ الناس عليه واعتمدوه، إلى أن شاع عنه ما كان الغالب عليه في علومه من اختيار العلوم القديمة، والركون اليها، وصرف عنانه جملة نحوها . ورام الجمع بين الشريعة والفلسفة، وحاد عما عليه أهل السنة، فترك الناس الرواية عنه.". وانظر كذلك ما جاء في كتاب التكملة لابن الابار، ج2، ص 163 في ترجمته لمحمد بن إبراهيم المهري من أهل بجاية ذو الاصول الاشبيلية حيث قال عنه:" وامتحن بقرطبة سنة ثلاث وتسعين (593هـ) هو وأبو الوليد بن رشد محنتهما المشهورة، من أجل نظرهما في علوم الأوائل... وتوفي ببجاية مصروفا عن القضاء بين عيدي الفطر والأضحى سنة 612هـ".**

والتورط في ازدحامها، ولا تخلطوا حامكم بحامها، إلا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحة، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة، **وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور مهجور**"[274].

هذا الرفض المبطن حينا والظاهر احيانا كان مسايرا للحركة العلمية من قبل الفقهاء طوال العصر الوسيط، واختلطت فيه التصورات الحقيقية بالباطلة ، والفتاوى المبيحة بالرافضة الحرمة، ومن خلال النصوص السابقة يتكشف لدينا هيمنة التوجه الرافظ لهذه العلوم فيما يعتقد أنه يستهدف عقائد الاسلام وعقول المسلمين.

اقطاب الرافضين:

- ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النميري (362- 463هـ[275]::

حافظ المغرب وشيخ الإسلام، يمكننا استنتاج موقفه من العلوم العقلية من خلال رصدنا لموقفه من علم الكلام، حيث يرى بأنه من البدع، وأورد في ذلك كلاما للشافعي وغيره من الفقهاء كلها ترمي علم الكلام بالتبديع وان أهله من أهل الأهواء، وانه لا يجب الولوج إليه إلا في حالة الضرورة إذا طمع في رد الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي إضلال العامة أو نحو ذلك[276]، ثم يقول :" أجمع اهل الفقه والاثار من جميع الامصار ان اهل الكلام اهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في طبقات الفقهاء وانما العلماء اهل الاثر والتفقه فيه ويتفاضلون فيه بالاتقان والميز والفهم "[277].

- محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابو حيان الأندلسي(654- 745هـ)[278]:

فقيه ومفسر صاحب كتاب البحر المحيط، وتروى عنه أن السبب الذي قوى عزمه على الرحلة من غرناطة باتجاه المشرق ان بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضيات والطبيعة اشار على السلطان الغرناطي ترتيب طلبة ليعلمهم هذه العلوم فأشير على ابي حيان الذي سارع بالرحلة الى المشرق مخافة ان يدرسها لانها كانت في نظره من العلوم المنبوذة التي لاينبغي لطالب العلم ان يتعلمها لانها سبيل الى الكفر والإلحاد والزندقة[279]، وبقيت هذه الصورة منقوشة في ذهنه وظهرت آثارها في تفسيره حيث يؤكد ان العلوم العقلية

---

(274) المقري: نفح الطيب، ج9، ص233.

(275) انظر ترجمته في، الحميدي: جذوة المقتبس، ص 332. ابن فرحون: الديباج، ص 440.

276 ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ، ص 938-

277 ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ، ص 942.

278 ترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة ج4، ص 302 ترجمة رقم 832 ترجمة ضافية.

279 الداودي، طبقات المفسرين ج2، ص 289. انظر كذلك ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ج6، ص 146.

بالأندلس في عصره كانت صورتها مخيفة متبرأ منها دائم الانكار عليها، وانه اذا بيع كتاب في المنطق انما يباع خفية، وانه لا يتجاسر ان ينطق بلفظ المنطق انما يسمونه" المفعل"[280].

وهاجم ابو حيان الفلاسفة واتهمهم بأنهم اعداء الانبياء والمحرفون للشريعة وهم أضر على المسلمين من اليهود والنصارى، ويظهر عليه التشفي في ابن رشد الحفيد وما تعرض له من النكبة، وأورد ابياتا في حقه في قوله[281]:

وحرق كتبهم شرقا وغربا*** ففيها كامنا شر العلوم

ابراهيم بن موسى الشاطبي(ت 790هـ):

موقفه من الفلاسفة أنهم مخالفون للسنة واتباعهم خطأ عظيم وانحراف عن الجادة[282].

وعن موقفه من علم الكلام أورد كلام ابن عبد البر وتبنى رأيه الذي يقول فيه:" أجمع أهل الفقه والآثار في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء" قال: وإنما العلماء: أهل الاثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم"[283].

3- العلوم التي طالها الرفض:

كان للفقهاء نظرة واضحة تكاد تكون قاعدة عامة حول العلوم العقلية التي تم رفضها او الدعوة إلى استبعادها، وهي العلوم التي لها علاقة ما بأفكار تمس عقائد الإسلام، او تخالف نصا من نصوص القرآن الكريم أو أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، مخافة أن تفسد على المسلمين عقائدهم، فكل علم تناول في مفرداته مثل هذه الافكار يكون موقف العلماء منه الرفض والدعوة إلى منابذته، وتأتي على رأسها العلوم التي تناولت الالهيات الارسطية المتعلقة بالذات الالهية، وأسمائه وصفاته، وأفعاله.

ونظرا لكون هذه الفلسفة اليونانية كان لها تأثير ما على النخبة من علماء المسلمين مما تميزت به من المجادلات العقلية والمناقشات العقدية، فقد اسسوا علم الكلام كمجابهة عقلية لما هو مناقض للعقيدة الاسلامية ودفاعا عنها من المتعالمين عليها.

ومن جهة أخرى كان للمنطق اليوناني نصيب كبير هو الآخر من الرفض في إطار استبعاد الفكر اليوناني من دائرة العلوم الاسلامية باعتباره لايخرج عن هذا الاطار الفلسفي اليوناني الذي اصبح في نظر الفقهاء الرافضين سما في الدسم.

---

[280] ابو حيان، البحر المحيط، ج6، ص 47.

[281] ابو حيان ، البحر المحيط ج6 ، ص 46-47. وانظر كذلك ص 382، 425، وج4، ص 109.

[282] الموافقات ج1، ص 50.

[283] الشاطبي، الاعتصام ، ج3، ص 423.

كما كان علم النجوم والكيمياء[284] محلان للرفض من قبل العلماء لان الاول يحتوي مسائل التنبؤ بالغيب وتأثير الكواكب في الانسان والدول والعالم، التي تتعارض مع عقيدة المسلمين، بينما الكيمياء كانت مختلطة بالسحر والشعبذة، ولا شك أن هذه العلوم في العصر الوسيط كانت خليطا من الافكار الصحيحة والسقيمة ولم تكن هذه العلوم قد استقلت عن هذه الافكار ومن ثم فإن الفقهاء عادة ما تكون احكامهم متجهة إلى عموم العلم الذي يحوي مثل هذه الافكار التي تتعارض مع الاسلام، ويتجه الرفض إلى الكل لاعتباره كلا لايتجزأ،

وفي بعض الاحيان نجد هناك من الفقهاء الذين تمكنوا من الغوص في بعض العلوم العقلية وتجاوزوا منطق الرفض الكلي إلى الجزئي، وبمرور الزمن شهدنا إشارات مهمة لبعض الفقهاء الذين تمكنوا من التفريق بين ما هو صحيح وما هو باطل من العلوم، ومن ذلك التفريق بين علم الهيئة المتعلق بالحسابات الفلكية الصحيحة، وبين تخرصات علم التنجيم الذي يبحث في التنبؤات في مسار المواليد والدول اعتماد على القرانات المختلفة بين الابراج.

بينما فيما يتعلق بعلم الكيمياء فقد كان علما منبوذا لاختلاطه بالسحر والشعوذة والغش رغم ما كان له من نتائج مهمة في الوصول إلى مواد كيميائية هامة وفقا التجارب المخبرية، ولم نشهد سوى بعضا من الفقهاء الذين تمكنوا من الفصل بين ما هو مخبري ونتائجه صحيحة وبين ماهو غير صحيح وكانت المفاهيم الكيميائية في حد ذاتها سببا في صدِّ العلماء والفقهاء عنه والدعوة إلى رفضه، مثل محاولة ايجاد الاكسير الذي يحول المعادن الرخيصة إلى نفيسة، وكذا ممارسات الكيميائيين التي تتجه إلى المناحي السحرية اكثر من اتجاهها إلى الجوانب المخبرية.

والخلاصة أن الباحث يشعر بأن إشكالية الرفض لبعض العلوم واعتبارها سليلة فلسفة اليونان التي يمكن أن تصد المسلمين عن عقيدتهم، إنما تأتَّت من أمرين أساسيين:

الاول : اعتبار هذه العلوم علوما غير إسلامية، واختلاطها أو حملها لأفكار مناقضة للعقائد الاسلامية، وممارسات أصحابها لصنوف من المروق عن الدين والدجل والخرافة والسحر والشعبذة والغش والتزوير.

الثاني : عدم تمكن جل الفقهاء من الولوج إليها والتمييز بين صحيحها وسقيمها، نظرا للمناخ الذي كان ينبذها ويدعو إلى تجنبها ومحاربتها، رغم أننا في تفاصيل ذلك وجدنا أن لهم في بعضها تدقيق وتمييز بين صحيحها وباطلها.

---

[284] **الغريب ان من الفقهاء من كان يعتقد بان الهندسة ترشد الى الضلال، انظر ياقوت الحموي، معجم الادباء ، ص 444-447 في ترجمته احمد بن محمد بن ثوابة(ت 277هـ).**

إن الفقهاء في العصر الوسيط رفضوا التفكير من خلال الثقافة اليونانية باعتبار ان الاسلام قائم بذاته غير محتاج إلى غيره، ولكنهم لم يتيحوا الفرصة للفلاسفة المسلمين من إنتاج فلسفة إسلامية من داخل المنظومة الاسلامية، لان الخوف والتوجس امتد إلى كل حركة فكرية مهما كان نوعها واعتبارها جزءا من حراك خارجي يستهدف ضرب الامة الاسلامية في عقيدتها، وكأن العقل الاسلامي لا يمتلك استقلالية التفكير عن غيره من الامم الاخرى.

ولقد جنت هذه المواقف على العقل الاسلامي –مع استثناءات–جناية كبيرة جعلته يحجم عن التفكير الحر، وعن الولوج إلى زوايا فكرية مختلفة، أو أن يعمق في تفكيره في مختلف العلوم، وكانت حاجزا اوقف النتاج العقلي الاسلامي في عمومه رغم وجود بعض الاستثناءات التي لم تكن مشكلة تيارا علميا واضحا وإنما كانت تدرس العلوم العقلية بشكل حذر، او ما استلزمته السلطة السياسية التي اهتمت بشكل لافت بالعلوم الطبية لحاجتها إليها، بينما بقيت العلوم الاخرى قابعة في حدود ضيقة، دون ان تستقل بمؤسسات اضطلعت بتنميتها، ومن ثم رأينا شذرات منها في المؤلفات الهندسية التي كانت نادرة بينما التأليف في غيرها من العلوم الشرعية كان مهيمنا على مسار المنظومة العلمية الاسلامية.

وللأسف الشديد فإن ثقافة الرفض في الذهنية الاسلامية أصبحت بمرور الزمن ظاهرة مزمنة بعيدة عن ابجديات التصورات الاسلامية التي بثها القرآن الكريم مما بيناه في مدخل الدراسة، ولم تكن ظاهرة الرفض مختصة بالعلوم العقلية، بل كان الرفض يسلط على المخالفين في المذهب والطائفة والسياسة حتى صار اللجوء إلى العنف يكاد يكون سمة بارزة على المسار السياسي والثقافي للامة الاسلامية، وتم ترسيمها وتأصيلها وترسيخها بشكل أساسي من قبل السلطة السياسية مع المنتفعين من السلطة العلمية، ورأينا اسوء هذه الظاهرة في زمن اصبحت فيها بعض الاراء الفقهية لاتجيز الصلاة وراء من يخالفه في المذهب ووجدنا مسجدا بأربعة محاريب. لكل مذهب محرابه الخاص.

نتائج:يجب ان ينتبه الباحث إلى أن هذه الاقوال والاحكام الصادرة عن هؤلاء العلماء والفقهاء إنما كانت تتحكم فيهم بيئتهم وظروفهم السياسية والثقافية والاجتماعية، وسياقات العصر من حيث أوجه الصراع بين الدول والاديان والطوائف والمذاهب، وما فيها من حروب ومؤامرات، وما يفعله أهل البدع والاهواء من افتراء وبغي وكتابة ضد الاسلام وعقائده ، فكان كل ذلك محصلة لما يدركه العلماءوالفقهاء كرد فعل بشري في ظروف خاصة متعلقة بمصر وزمن معين، وان هذه الكتب والفتاوى الفت في سياقات تاريخية وملابسات ظرفية مختصة بفترة معينة، واذا كانت هذه النصوص تعكس تفاعل الفقيه مع احداث عصره بما تقتضيه المرحلة فانها تبقى اجتهادات مرتبطة بالزمان والمكان والظروف والاحوال والاصطفاف والمزاجات التي غالبا ما تكون منفعلة نسبيا مع شدة ما يحاك ضد العقيدة الاسلامية.

ثالثـــا تيار التوفيقيين:

1- منطلقات التوفيقيين:

نقصد بالتوفيقيين هي تلك الحركة التي تبنت مشروعا يستهدف إزالة اللبس أو سوء الفهم الذي تعرضت له العلوم العقلية منذ حضورها في حركة الترجمة، ومحاولة إيجاد مخرج من المأزق الحضاري الذي تعرضت له المنظومة العلمية في تبنيها مصادرة هذه العلوم في عمومها، والنظر للعقل بتوجس كبير -رغم ظهور مدرسة الرأي في مقابل مدرسة الأثر- حتى أصبحت (العلوم العقلية) علامة على فساد دين منتحليها وخطورتهم على عقائد الإسلام، وترسخت ثنائية النقلي والعقلي، والعداء بينهما، وقد جر تحييد هذه العلوم من المنظومة العلمية الاسلامية تفويت منافع عظيمة على مستوى الإنتاج الحضاري للأمة الإسلامية في التفاعل مع دينها ودنياها، حيث صار النقل عنوان هذه المنظومة رغم وجود بعض الاستثناءات.

-كما يرنو هذا التيار إلى إزاحة غطاء التقليد الذي تكلس لقرون واصبح مهددا للإسلام في حد ذاته بعد أن جردته المنظومة العلمية من أهم مقوماته وهي إعمال العقل في التعامل مع دين الله تعالى. واستعادة تفعيل أيات الوحي الكريم في نعيه عن تقليد الاباء والسلف دون نظر ولا برهان.

-كما كانت منطلقات هذا التيار التوفيقي تدعو إلى الاستفادة من الميراث العقلي الانساني وفرزه عن فاسده باعتباره تراثا لا انتماء له لانه قاسم مشترك بين عقول البشر تدركه العقول السليمة، وتراكمه في تطوير منافعه التي سنها الله فيه.

2-أطروحات تيار التوفيقيين:

جاءت فكرة التوفيق بين الشريعة والحكمة او الفلسفة او العلوم العقلية بصفة عامة لتصحيح الفكرة السائدة في اعتبار العلوم العقلية علوما يونانية اوفارسية او هندية، او بتعبير آخر، علوما غير إسلامية. بعدما انتشرت بشكل لافت المعارضة والرفض الواسع للعلوم العقلية باعتبارها علوما دخيلة على الثقافة الاسلامية، والحقيقة ان هذه الفكرة هي أم الخبائث التي سُقِيَت منها النخب الاسلامية التي تبنت موقف الرفض لهذه العلوم، وتعرض العقل الاسلامي بسببها إلى غيبوبة او سكر مزمن لاتزال بعض نوباته إلى عصرنا الحالي.

-التوفيق بين الشريعة والحكمة، والتأليف بينهما والتأكيد على أن لا تعارض بين الشريعة والحكمة، ولا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول. بل إن كلا منهما يدعم الثاني ولا يمكن التغافل عن واحد منهما لصالح الثاني، وقد يكون نص الغزالي من أدق النصوص وأوضحها في تكلمل العقل والنقل حيث يقول في مقدمة كتابه المستصفى:" فاشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه

وأصوله من هذا القبيل، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد"[285]

-استعادة مركزية العقل في التفكير الاسلامي في إطار مرجعية منظومة العقائد الاسلامية، واستعادة توظيفه في مختلف الرؤى العلمية في علوم الافاق والانفس.

3- رواد التوفيقيين:

ظهرت هذه الحركة التوفيقية أكثر رشدا ونضجا وتبصرا من خلال روادها ممن درسوا او درَّسوا العلوم العقلية في تخصصاتها المختلفة، وما رأوه في هذه العلوم من الحكمة والصحة كان وراء تبنيهم لمشروع التنبيه الى ما في هذه العلوم من فوائد أساسية في تحقيق مبدإ استخلاف الله للإنسان في هذه الارض، وفي إمعان النظر والتفكير ، وكإضافة نوعية للمعارف الإسلامية، وأنه من صميم ما نبه إليه الوحي الكريم المبثوثة في آي القرآن الكريم التي طالما يقرؤها الناس.

وكان على أصحاب هذا المشروع ان يتجاوزوا عقبات راسخة اصبحت دينا يعتقده الناس ويرون الخروج عليه كفر وزندقة، وفي كثير من الاحيان يتعرض الواحد منهم إلى التنكيل في شخصه، أو مركزه، أوظيفته، أو أسرته، أو ممتلكاته، أو حتى حرق كتبه.

وقبل استعراض اقطاب التوفيقيين الذين لهم حضور واسع في العالم الاسلامي يجدر بنا بداية إيراد آراء مجموعة ممن كانت لهم سابقة ارست البدايات الاولى لهذا التيار ولا يهمنا في ذلك مذهب اي منهم وانما الذي يهمنا ما كتبوه لتحقيق هذا الهدف، ومنهم الحارث المحاسبي(165- 243هـ) الذي تناول جانب استعادة وظيفة العقل بقوله:" ولا غناء بالعبد عن التفكر والنظر والذكر ليكثر اعتباره، ويزيد في علمه ويعلو في الفضل...فمن قل تفكيره قل اعتباره، ومن قل اعتباره قل علمه، ومن قل علمه كثر جهله، وبان نقصه، ولم يجد طعم البر، ولا برد اليقين، ولا روح الحكمة....فما أقربه في حياه من حياة البهائم التي لاتعرف إلا ما باشرته بجوارحها"[286] .

ثم يقول:"ولقد جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقبس الاراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الابصار، اليها ياوي كل محصول، وبها يستدل على ما اخبر به من علم الغيوب، فيها يقدرون الاعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوارح بالفعال بأمرها فتسارع الى طاعة، او تزجرها فتمسك عن مكروهها"[287] .

---

[285] الغزالي، المستصفى، ج1، ص 4.

[286] الحارث المحاسبي، العقل وفهم القرآن(مائية العقل)، ص235.

[287] الحارث المحاسبي، العقل وفهم القرآن(مائية العقل)، ص 266-267.

اما الجاحظ(150-255هـ) فقد حاول الرد على الملحدين بالجمع بين الشريعة والحكمة بقوله:" وليس يكون المتكلم جامعا لاقطار الكلام متمكنا في الصناعة يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعلم عندنا هو الذي يجمعهما، والمصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الاعمال، ومن زعم ان التوحيد لا يصلح الابإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد . وكذلك اذا زعم ان الطبائع لا تصح اذا قرنتها بالتوحيد، ومن قال فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع، وانما ييأس منك الملحد إذا لم يَدْعُك التوفر على التوحيد الى بخس حقوق الطبائع لان رفع اعمالها رفع اعيانها. واذا كانت الاعيان هي الدالة على الله فرفعت الدليل فقد ابطلت المدلول عليه، ولعمري ان الجمع بينهما لبعض الشدة، وانا اعوذ بالله تعالى ان اكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل نقضت ركنا من اركان مقالتي ، ومن كان كذلك لم ينتفع به " [288].

وتحدث ظهير الدين البيهقي(ت 556هـ) عن الكندي (ت 252هـ)بأنه "جمع في بعض تصانيفه بين اصول الشرع واصول المعقولات"[289].

وثمة اشارات من قبل الفارابي (المعلم الثاني) (ت 339هـ) للجمع بين الشريعة والحكمة في قوله:" ينبغي لمن اراد الشروع في علم الحكمة ان يكون شابا صحيح المزاج متادلا بآداب الاخيار، قد تعلم القرآن واللغة وعلم الشرع أولا ... ويكون مقبلا على آداء الوظائف الشرعية ، غير مخل بركن من اركان الشريعة، بل غير مخل بأدب من آداب السنة، ويكون معظما للعلم والعلماء، ولم يكن عنده شيء قدر الا للعلم وأهله"[290].

وكان احمد بن سهل البلخي (235- 322هـ) تلميذ الكندي، له باع في العلوم العقلية فتعمق في الفلسفة وهجم على اسرار التنجيم والهيئة وبرز في علم الطب وبحث في اصول الدين اتم بحث وابعد استقصاء[291] ، والف العديد منها ، ومن اقواله:" الشريعة الفلسفة الكبرى، ولا يكون الرجل متفلسفا حتى يكون متعبدا مواظبا على آداء أوامر الشرع [292]."

(التنبيه إلى كل من ابن باجة[293] وابن طفيل)

اما عن الشخصيات الوازنة في الثقافة الاسلامية الوسيطة فنستعرض مجموعة منهم كما يلي:

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي(ت456هـ)[294]:

---

[288] **الجاحظ، كتاب الحيوان، ج2، ص 134-135.**

[289] **البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص 41**

[290] **البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص 30.**

[291] **الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص 251.**

[292] **البيهقي: تاريخ حكماء الاسلام، ص 43. الشهرزوري، تاريخ الحكماء، ص 308.**

[293] عن هاتين الشخصيتين ، انظر، الدوميلي: العلم عند العرب، ص 365- 366-،

لعله من الضروري معرفة تصور ابن حزم حول العلوم العقلية، لأن رأيه فيها له تأثيره الكبير في مستقبل هذه العلوم في المنظومة الثقافية والعلمية في المغرب الإسلامي، نظرا لمكانته العلمية والفقهية الكبيرة، واعتباره مرجعا من المراجع الأساسية في الثقافة الإسلامية من خلال كتبه ومؤلفاته ورسائله، ليس في المغرب والأندلس فحسب، ولكن في ربوع العالم الإسلامي كله[295]. ولتبين موقف ابن حزم من العلوم العقلية نورد بعضا من نصوصه التي توضح ذلك.

يقول ابن حزم:" إن علوم الأوائل هي: **الفلسفة وحدود المنطق** التي تكلم فيها أفلاطون، وتلميذه أرسطاطاليس، والإسكندر ومن قَفَا قَفْوَهم، **وهذا علم حسن رفيع** لأنه فيه معرفة العالم كله بكل ما فيه من أجناسه إلى انواعه، إلى أشخاص جواهره وأعراضه، ... والوقوف على البرهان الذي لايصح شيء إلا به، وتمييزه مما يظنُّ مَنْ جَهِلَ أنه برهان، وليس برهانا، **ومنفعة هذا العلم عظيمة في تمييز الحقائق** مما سواها"[296].

"**وعلم العدد** الذ يتكلم فيه اندروماخش، مؤلف كتاب الأرثماطيقي، في طبائع العدد، ومن نحا نحوه، **وهو علم حسن صحيح برهاني...**" ويشير بأن منفعته دنيوية.

وعلم المساحة التي يتكلم فيها جامع كتاب أقليدس ومن نهج نهجه، **وهو علم حسن برهاني"، ويرى بأن منفعته دنيوية ...**

وعلم الهيئة الذي تكلم فيه بطلميوس ولونخس قبله...**وهو علم برهاني حسيٌّ حسن،** وهو معرفة الأفلاك، ومدارها، وتقاطعها، ومراكزها، وأبعادها، ومعرفة الكواكب، وانتقالها، وأعظامها، وأبعادها، وأفلاك تداويرها؛ **ومنفعة هذا العلم إنما هو في الوقوف على إحكام الصنعة، وعظيم حكمة الصانع، وقدرته، وقصده، واختياره؛ وهذه منفعة جليلة جدا، لا سيما في الآجل.**

وأما القضاء بالكواكب فباطل لتعريه من البرهان، وإنما هو دعوى فقط...

---

(294) ترجمته في مختلف كتب التراجم منها، الحميدي: جذوة المقتبس، ص 277. ابن خاقان: المطمح 55. الضبي: بغية الملتمس، ص 364. صاعد: طبقات الأمم، ص 97. أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال: كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ/2003م، ص 333، وفي طبعة ص 605 ترجمة رقم 898. ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م، القسم الاول، ج1، ص167. انظر كذلك ، محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، آراؤه وفقهه.

(295) قال عنه معاصره الحميدي (ت488هـ/1095م) في كتابه جذوة المقتبس ص 277 :" كان حافظا، عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمة، عاملا بعلمه... وتواليفه كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم.

296 ابن حزم: الرسائل، رسالة التوفيق على شارع النجاة باختصار الطريق، ج3، ص 131.

وعلم الطب الذي تكلم أبقراط وجالينوس وديساقوريدس ومن جرى مجراهم، وهو علم مداواة الأجسام من أمراضها مدة مقامها في الدنيا، **وهو علم حسن برهاني...**"[297].

اما موقفه من الكيمياء فيعتبرها كذب وشعوذة بما فيها من غش وتدليس[298]

إذن كل علوم الأوائل (فلسفة- علم العدد- المساحة- علم الهيئة- علم الطب) عند ابن حزم من العلم البرهاني الحسن، ومنفعتها مؤكدة في حياة الإنسان. بينما يشنع على علم الموسيقى والكيمياء، ويدرجهما في خانة الشعوذة والتمخرق مع الطلسمات. ولا شك أن مثل هذا الرأي قد ساهم في التمكين للعلوم الأولى دون ريبة أو توجس، بينما صُرِفت أبصار المجتمع عن الثانية.

أبو حامد الغزالي(ت 505هـ):

وفي المشرق كان الإمام **الغزالي** الذي يمتلك هو الآخر خلفية عقلية[299] وكتب في كتابه المستصفى ما يؤكد جمعه بين الشريعة والحكمة :"فأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه واصوله من هذا القبيل، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول، بحيث يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد"[300].

وقد حذر الغزالي من آفة إنكار العلوم العقلية لدى الفقهاء ورأى أنها :" **نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كل علم منسوب إليهم**، فأنكر جميع علومهم، وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حبا وللإسلام بغضا"[301]. ثم قال عن نتائج هذه الآفة :" **ولقد عظمت على الدِّين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي أو الإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية**"[302].

---

(297) ابن حزم: الرسائل، رسالة التوفيق على شارع النجاة باختصار الطريق، ج3، ص 131- 133.

(298) ابن حزم: الرسائل، رسالة في مراتب العلوم، ج4، ص62.

(299) بالإضافة إلى ما اشتهر به أبو حامد الغزالي من تمرسه في الفلسفة فإنه كان على اطلاع واسع على العلوم العقلية، ومن الأمثلة على ذلك وصفه لكيفة عمل الساعة المائية، وهي من الأعمال الفيزيائية أو ما كان يعرف بعلم الحيل، وتعرض من خلالها إلى المبادئ التي كانت تتحكم في حركتها، انظر كتابه، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق فضله شحاذة، دار المشرق بيروت، 1391هـ/1971م، ص 99-100.

300 الغزالي ، المستصفى، ج1، ص 4.

(301) الغزالي أبو حامد: المنقذ من الضلال، ص80-81.

(302) نفسه. ".

ووضح الغزالي رؤيته إلى ضرورة البحث في العلوم العقلية من خلال توجيه العقل إلى ما تقتضيه الايات الكريمة التي تتحدث عن بعضها ففي قوله تعالى﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾[303] قال:" وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله اذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه "[304]. و في قوله تعالى: ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾[305]﴿ وقال وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾[306]﴿ وخسف القمر وجمع الشمس والقمر ﴾[307]﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾[308]﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[309] قال: "ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه"[310].

وقال :"ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾[311] الا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع اليها وهي **من علوم الأولين والآخرين**، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين.

وكذلك لا يعرف كمال معنى قوله تعالى ﴿سويته ونفخت فيه من روحي﴾ من لم يعلم التسوية والنفخ والروح ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق وربما لا يفهمونها ان سمعوها من العالم بها. ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ولا تمكن الاشارة الا الى مجامعها وقد أشرنا اليه حيث ذكرنا أن من جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله فتلك الجملة تشتمل على هذه التفاصيل وكذلك كل قسم

---

[303] **الشعراء، آية 80.**

[304] **الغزالي، جواهر القرآن، ص 45-46.**

[305] **الرحمن آية 5.**

[306] **يونس آية 5.**

[307] **القيامة 8.**

[308] **فاطر آية 13. الحديد، آية 6.**

[309] **يس آية 38.**

[310] **الغزالي ، جواهر القرآن ص 46.**

[311] **الانفطار آية 6.**

أجملناه لو شعب لانشعب الى تفاصيل كثيرة فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين وجملة أوائله وانما التفكر فيه للتوصل من جملته الى تفصيله وهو البحر الذي لا شاطىء له"[312].

وتحدث الغزالي عن المنطق في أول كتابه المستصفى وعنونها بـ" المقدمات المنطقية" أو مدارك العقول، حيث أكد بأنها لازمة كمقدمة " للعلوم كلها، ومن لايحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلا"[313].

المازري: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري (ت536هـ/1141م) [314]

كان المازري من كبار فقهاء المالكية ومجتهديهم، وكان مختصا في علم الطب والحساب[315]، وله كذلك دراية بعلم الفلك[316]. وكما كان من **فقهاء الدين** المتميزين، كان كذلك من **فقهاء البدن**[317] المتمرسين[318]،

---

[312] الغزالي، جواهر القرآن، ص 46. يبدو الغزالي وكأنه يتعارض مع ماكتبه في كتابه المستصفى،ج1، ص 3 عندما قال:" العلوم ثلاثة: عقلي محض لا يحث الشرع عليه، ولا يندب إليه كالحساب والهندسة والنجوم وأمثاله من العلوم، فهي بين ظنون كاذبة لا ثقة بها، وإن بعض الظن إثم، وبين علوم صادقة لا منفعة لها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع"

[313] الغزالي ، المستصفى، ج1، ص 30. ألف الغزالي كتابه معيار العلم حتى يوضح القواعد والدلائل التي يجب مراعاتها حتى يقال بان هذا من العقل، كالعروض بالنسبة للشعراء، والنحو بالنسبة للإعراب.، انظر ص 18. ويأتي هذا الكتاب كمعالجة لاشكالية اختلاط المعارف والنظر العقلي بغيره مما لا علاقة له بالعقل، وكإجابة على واقع كثر فيه المدعون بالعقل : " كثر في المعقولات مزلة الاقدام، ومثارات الضلال، ولم تنفك مرآة العقل عما يكدرها من تخليطات الاوهام، وتلبسات الخيال ". ثم نبه الغزالي ان في الانسان ثلاثة حكام: الحكم الحسي ، والحاكم الوهمي، والحاكم العقلي، والمصيب من هؤلاء هو الحاكم العقلي، وعطى لذلك أمثلة بقرص الشمس وصغره، بينما أثبت العقل أنها أكبر من الارض أضعافا مضاعفة، وبأن الظل للاجسام المنتصبة واقف ثابت، والعقل يؤكد ببراهين يقينية ان الظل متحرك على الدوام، وبأن طول الصبي في في مدة النشء غير واقف بل هو في النمو على الدوام والاستمرار وإن خفي على الحس ذلك ولكن العقل يشهد به، ص 20.

[314] انظر ترجمته في، القاضي عياض: الغنية، ص 65. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص285. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج12، ص 57، ترجمة رقم 5120. ابن فرحون: الديباج، ص374. الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4، ص 114. المقري: أزهار الرياض، ص163. مخلوف: شجرة النور، ص 127.

[315] قال عنه تلميذه القاضي عياض بأنه :" إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر...واطلع على علوم كثيرة من الطّب والحساب والآداب وغير ذلك، فكان أحد رجال الكمال في العلم في وقته"، انظرالقاضي عياض: الغنية، ص 65.

[316] البرزلي: الفتاوى، ج4، ص 209-210.

[317] الدباغ: معالم الإيمان، ج2، ص 186، 189. حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، ج1، ص274. راجي عباس التكريتي: الإسناد الطبي في الجيوش العربية الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق،1404هـ/ 1984م، ص 196. ربما كانت في ذلك إشارة إلى بقاء آثار هذا المصطلح رغم اختفائه تقريبا في اواخر العصر الأغلبي.

[318] من النصوص المؤكدة لتمرس المازري في الطب ما أورده عرضا في كتابه " المعلم"، ج3 ص 169-170 عندما تناول مجموعة من الاحاديث التي اعترض عليها أحد الملحدين كما يسميه المازري ومنها حديث التداوي بالعسل من صحيح مسلم وكيف رد عليه بدقة وإسهاب من خلال النظرية الطبية التي تؤكد تيسير الجسم من التخلص من الاسهال وليس توقيفه. وانظر كذلك اقتباسات لهذا النص في، شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1996م، ج9، ص 488-490.

حيث كانت لمداواته في الطب وجاهة خاصة، عبر عنها تلميذه **القاضي عياض** بالمصطلح الغالب في ثقافة عصره، الضاغط بحمولته ومدلوله، بقوله:" **وإليه كان يُفزع في الفتوى في الطب في بلده، كما يُفزع إليه في الفتوى في الفقه**"[319].

أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي الوليد ابن رشد الحفيد(ت 595هـ) [320]:

جمع ابن رشد الحفيد بين العلوم النقلية والعقلية، فكان متضلعا في الفقه متمكنا في الطب ، متمرسا في الفلسفة، ولذلك كانت لفتاويه المتعلقة بالجانب الطبي لفتات لا يدركها سوى الأطباء، حتى قيل فيه بأنه "**كانت الدراية أغلب عليه من الرواية... وكان يفزع إلى فتواه في الطب، كما يُفزع إلى فتواه في الفقه**"[321].

أما رؤيته التوفيقية فقد أوضحها بجلاء في كتابه "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" في محاولة منه لردم تلك الفجوة التي تعاظمت في عصره بين العلوم النقلية والعلوم العقلية، والتقريب بين علوم الشريعة وبين كتب الحكمة أو كتب القدماء، وقال في ذلك بعد بيانه للحاجة إلى العلوم العقلية :" وإذا كان هذا هكذا، فقد يجب علينا إن ألفينا لمن تقدم من الأمم السالفة نظرا في الموجودات، واعتبارا لها، بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناه. **فقد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء(علوم الفلسفة والمنطق والعلوم العقلية) واجب بالشرع إذا كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع** عليه، وأن من نهى عن النظر فيها **من كان أهلا للنظر فيها – وهو الذي جمع أمرين: أحدهما: ذكاء الفطرة، والثاني: العدالة الشرعية، والفضيلة العلمية والخلقية – فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله، وهو باب النظر المؤدي إلى معرفته حق المعرفة، وذلك غاية الجهل، والبعد عن الله تعالى**"[322].

---

(319) عياض القاضي: مص.س، ص 65.

(320) ترجمة القاضي ابن رشد الحفيد في، ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر لبنان، 1415هـ/1995م، ج2، ص 73. عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/ 2006م،ص 179–180. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص 530–533. ابن الزبير أحمد بن إبراهيم: صلة الصلة، تحقيق، عبد السلام الهراس، سعيد اعراب، مطبعة فضالة، المحمدية ، المغرب، 1416هـ/1995م، القسم الخامس، ص 383

(321) ابن الأبار: التكملة، ج2، ص74. ابن فرحون: مص.س، ص379. الذهبي: مص.س، ج21، ص 308، ينقل عن ابن الأبار في التكملة. المراكشي: الإعلام، ج4، ص 129.

(322) ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق، محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1969م، ص 28–29.

الخُوْنَجي[323] **محمد بن ناماور بن عبد الملك أفضل الدين(ت 646هـ):** عالم بالحكمة والمنطق فارسي الاصل أنتقل إلى مصر وولي قضاءها،ودرس في المدرسة الصالحية بالقاهرة، وتوسع في علوم الاوائل حتى تفرد برياسة ذلك في زمانه، وصنف كتاب " كشف الاسرار عن غوامض الافكار"، و" الموجز" في المنطق، " والجمل" في 8 صفحات ، الذي صار معتمد الدراسات المنطقية مشرقا ومغربا، وشرحه ابن مرزوق الحفيد في كتاب بعنوان " نهاية الامل في شرح الجمل"[324]

القرافي: لأحمد ابن إدريس القرافي البربري الصنهاجي (ت 684هـ)[325].

أما بالنسبة للقرافي فقد كان من الفقهاء المالكية المرموقين، إذ انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك رحمه الله تعالى[326]، كما كان متمرسا في مجموعة من العلوم العقلية[327] مثل الطب[328]، والفلك[329]، وخاصة في فرع علم المواقيت(330)، وله فيه تأليف بعنوان "اليواقيت في علم المواقيت"(331). وكذلك استعمل الحساب والجبر والمقابلة لأول مرة في علم الفرائض بشهادته هو إذ قال :" وأنقح إن شاء الله كتاب الفرائض، وأمهد قواعده وما عليها من نقوض، وأقرر ما أجده، وأودع فيه من الجبر والمقابلة ما يُحتاج إليه، فإني لم أره في كتبنا، بل في كتب الشافعية والحنفية، **وهو من الأسرار العجيبة التي لا يمكن أن يخرج كثير من مسائل الفرائض والوصايا والنكاح والخلع والبيع والإجارة إلا بها**"[332]؛ وتناول في مؤلفه "الذخيرة" حساب الجبر والمقابلة في القسم الثاني من كتاب "الفرائض والمواريث" في أكثر من أربع وتسعين(94) صفحة(333)، ما يمكن إفراده في كتاب خاص بالحساب.

---

[323] بلد من أعمال اذربيجان أنظر معجم البلدان ص

[324] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص 105،–106. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص 409. طاش كبري زاده، مفتاح السعادة،ج، ص 284. الزركلي، ج7، ص 122.

(325) ترجمته في، ابن فرحون: مص.س، ص 128. السيوطي، ج1، ص273. الذهبي: مص.س، ج14، ص234. مخلوف: شجرة النور، ص 188. الزركلي: الاعلام، ج1، ص93.

(326) ابن فرحون: مص.س، ص 128.

(327) ابن فرحون: الديباج، ص128. السيوطي: مص.س، ص274. وانظر كذلك إلى اشارة ابن خلدون في المقدمة ص462 عندما تحدث عن سند التعليم.

(328) القرافي: نفائس الأصول في شرح المحصول، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ومحمد علي محمد عوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1، 1416هـ/1995م، ج1، ص 175–176، ج6، ص 2602. القرافي: الفروق، الفرق رقم 242، ج4 ، ص 240 – 242.

(329) القرافي: الذخيرة، ج2، ص123–124، 431، 490.

(330) القرافي: نفائس الأصول، ج2، ص 13، 125.

(331) ابن فرحون:مص.س، ص 128. الكتاب حققه جلال علي الجهني، دون بيانات.

(332) القرافي: الذخيرة، ج1، ص 39.

(333) نفسه، ج13، من ص134 إلى ص 228.

وأسهب القرافي في الحديث عن ضرورة علم الجبر والمقابلة في مسائل الفقه المختلفة فقال:" **ضرورة العلماء تدعو لهذا العلم لأن ثمَّ مسائل من الوصايا، والخلع، والإجارة، والنكاح، وغير ذلك من المسائل التي فيها دور، وهي كثير، لا تخرج بالحساب المفتوح، لأنه لا يخرج كل المجهولات على ما يتضح لك في المسائل التي يقع فيها العمل، ويخرج بالجبر والمقابلة**"[334].

وفي علم الفيزياء تحدث القرافي عن كيفية كشف الغش في النقود وطريقة اختبارها بواسطة ميزان ذكره، ودوَّن بإسهاب طريقة العمل به كأحد المختصين في ذلك، وقال عنه: "**فائدة هندسية فقهية، يُعلم بها النقد المغشوش هل هو مغشوش أم لا ؟ وإن كان مغشوشا فما مقدار غشه** ؟ وهل الغش من النقد الزكوي فيضم بعد العلم بمقداره، أو من غيره فيطرح، **من غير حمي بالنار، ولا بُرْد بالمِبرد، ولا حك بالميلق،** بل يعلم ذلك والذهب والفضة على حاليهما، من سكة، أو صياغة، أو ترصيع فصوص، مع بقائه على منحته"،

ثم قال:" **وهي فائدة يحتاجها الفقهاء، والقضاة في أموال الأيتام، والملوك، وأرباب الأموال النفيسة، وهي من عجائب المعقولات، مما تعب الأقدمون التعب الكثير، حتى فتح الله عليهم بها**[335].

كما كان للقرافي في إطار علم الحيل (الفيزياء) معرفة بعلم الصوتيات(336)، وعلم المناظر(337)، وعلم الحيل(338)، وله اختراعاته الصّناعية الخاصة[339].

وهذا ما جعل الفقيه **القرافي** يدعو الفقهاء إلى ضرورة المزاوجة بين العلوم العقلية والنقلية عندما قال :"**وكم يخفى على الفقيه الحق في المسائل الكثيرة بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العلية أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم.**

فلم أرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا ***كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ"[340].

ولعل **القرافي** من خلال هذه الصيحة قد دق ناقوس خطر المفاصلة بين العلوم النقلية والعقلية على العلوم النقلية ذاتها، ويريد العودة بالأخص إلى المناهج التي تربط العلوم المختلفة برباط عضوي تكاملي باعتبارها

---

(334) القرافي: الذخيرة، ج13، ص134.

335 القرافي: الذخيرة، ج 3، ص 15 –16. وقد نقل عنه هذا النص علي بن يوسف في الدوحة المشتبكة، ص 43.

336 القرافي: نفائس الأصول، ج1، ص 440–442، باب اللغات.

337 ماكس مايرهوف: العلوم والطب، من كتاب "تراث الإسلام"، ص491، يقول بأن القرافي في الكتاب البصري الذي ألفه(هو كتاب المناظر) بحث فيه خمسين مسألة بصرية.

338 القرافي: نفائس الأصول، ج1، ص 441–442.

339 صنع القرافي شمعدانا تتغير ألوانه الضوئية كل ساعة، كما صنع حيوانا يمشي ويلتفت يمينا وشمالا ويصفر، انظر، القرافي: نفائس الأصول في شرح المحصول، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ومحمد علي محمد عوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1، 1416هـ/ 1995م، ج1، ص 441–442.

340 القرافي: الفروق، ج4، ص23 (في الفرق السادس والمئتان 206).

علوما كونية منسجمة وغير مفصولة عن الإنسان عقلا وروحا. فكلما كان علم الفقيه في العلوم العقلية أوسع وأعمق كانت فتواه أدق وأصدق، وإذا كان جاهلا بها كانت فتواه أقرب إلى الخلط منها إلى الحق، وضررها في المآل أشد وأنكى من ضررها في الحال، لأن هذه الفتوى يكون لها في المستقبل أتباع وأوفياء.

طاش كبري زادة(ت 962هـ) : يقول :"ولا تظنن أن العلوم الحكمية مخالفة للعلوم الشرعية البتة، وليس كذلك بل الخلاف في مسائل يسيرة، وبعضها مخالف ظاهرا، لكن أن حقق يصافح أحدهما الاخر ويعانقه"[341].

رابعا: صدى التفاعل في المجتمع:

إن نتائج معادلة التفاعل بين العناصر المختلفة متبنين ورافضين وتوفيقيين يمكننا رصدها في النقاط التالية:

1- هيمنة تيار الرافضين:

من خلال رصدنا لنماذج من النصوص المؤثرة في المنظومة الثقافية والفكرية الاسلامية في العصر الوسيط، والتي لا تزال امتداداتها وترددتها في العالم الاسلامي الحديث والمعاصر، رأينا هيمنة واضحة لتيار الرفض أو الاستغناء عن العلوم العقلية بصفة عامة، وخاصة الحساب والهندسة والفلك، وكان للمنطق والكيمياء حصة الاسد في الرفض والمحاربة الصريحة.

إن الرفض في حقيقته عملية سلبية خاصة إذا لم يكن نتيجة دراسة ودراية وفحص دقيق، لانه في هذه الحالة لايعطي فرصة للعقل كي يجتهد في دراسته وينشط في تفكيك خيوطه، والتحقق من طبيعته، وتمييز صحيحه من باطله، وإذا كان الرفض مبررا بفتاوى فقهية فإن العقل يميل إلى الاسترخاء والكسل والتقوقع المشرعن،

والمعروف من خلال الدراسات والمراقبين قديما وحديثا فإن علم الفقه هو العلم الذي كانت الهمم مائلة إليه ومقصورة عليه[342]، وفتاوى الفقهاء لها على الامة سلطتها الدينية الخاصة، وكلما مر الزمن تنامت سلطة الفقهاء واصبح لفتاوى وأراء ونصوص القدماء منهم سطوة تصل إلى حد التقديس، في ظل الاصطفاف المذهبي الذي يفرض عملية الاخذ عن السابقين دون حاجة إلى إعادة النظر، واعتبرت فتاواهم ونصوصهم من الدين أو هي الدين عند بعض المنتسبين والاتباع، وفي هذا الاطار كان نفوذ بعض الفقهاء عبر القرون على شرائح واسعة

---

[341] طاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ج1، ص 296. رغم مدحه للمنطق ولابن سينا والفارابي وما قدموه في المنطق والفلسفة ألا أن طاش كبري زادة، حمل على كل في المقدمة وحرم الاشتغال بالفلسفة، انظر ص

[342] الغزالي، معيار العلم، ص 19.

من المجتمع عامة ونخبة، ولم يستطع تطاول الزمن أن يتجاوزهم[343]، وتؤخذ نصوصهم على أنها حق لا شك فيه، بل أصبحوا مرجعيات توجه افكارهم الخاصة والعامة، ولايمكن التفكير في تجاوزهم أو نقدهم. ومن نماذج ذلك ما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية حول تحريم المنطق الارسطي بقوله:" ولهذا مازال علماء المسلمين وأئمة الدين يذُمُّونَه، ويذُمُّون أهلَه ، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فُتْيَا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم، من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم، فيها كلام عظيم في تحريمه، وعقوبة أهله، حتى أن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال : أَخْذُهَا منه أفضل من أخْذِ عكَّا(وكانت محتلة من قبل الصليبيين)، مع أن الآمدي لم يكن أحدٌ في وقته أكثرَ تبحُرًا في العلوم الكلامية والفلسفية منه، وكان من أَحسنِهم إسلاما، وأمثلِهم اعتقادا"[344].

وفي نفس السياق تحدث السيوطي (ت 911هـ) في ترجمته لنفسه عندما تعرض إلى الائمة المجتهدين في مصر وصنف نفسه آخر المجتهدين، فقال:" وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئا في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك، فعوضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم"[345]، وألف سنة 867 او 868 هـ وهو في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة كتابا او رسالة في تحريم المنطق عنوانه "القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق"، وقال عنه بأنه ضمنه نقول أئمة الاسلام في ذمه وتحريمه[346]، وبعد عشرين سنة ذكر السيوطي ما أنعم الله عليه من الوصول إلى رتبة الاجتهاد، فذُكِّر بأن المجتهد من شروطه معرفة فن المنطق قال:" فطلبت كتاب ابن تيمية (نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان) –الذي لم يكن قد اطلع عليه من قبل–...فلخصته في تأليف لطيف سميته " جهد القريحة في تجريد النصيحة""، ثم أراد ان يكون في صف ابن الصلاح ويؤكد تحريم المنطق ويبسط الاقوال فيه فقال:" وقد رأيت أن أصنف كتابا مبسوطا في تحريمه على طريقة الاجتهاد والاستدلال جامعا مانعا وبالحق صادعا أبين فيه صحة ادعاء ابن الصلاح من نسبة نفي الاباحة إلى المذكورين... وسميت الكتاب "صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام"[347]، وتبعا له ألف"فصل الكلام في ذم الكلام"[348].

واستمرت هيمنة هذا التيار، وترددت آثاره عبر القرون رغم استقلالية بعض العلوم عن غيرها، ومن بين المتأثرين بهذا الطرح طاش كبري زاده(ت 962هـ) الذي بدأ بالتحذير من الاستهانة بأي علم من العلوم تقليدا

---

[343] يقول ابن رجب الحنبلي(ت 795هـ) في كتابه الذيل على طبقات الحنابلة، ج1، ص 360، في ترجمته لنصر بن فتيان بن مطر النهرواني البغدادي ابن المني، :" قلت (ابن رجب) وإلى يومنا هذا لامر على ذلك فإن أهل زماننا إنما يرجعون في الفقه من جهة الشيوخ والكتب إلى الشيخين موفق الدين المقدسي، ومجد الدين ابن تيمية "

[344] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 6–7.

[345] السيوطي، حسن المحاضرة ، ج1، ص 339.

[346] السيوطي، صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، ص 33.

[347] السيوطي، صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، ص 35.

[348] السيوطي، حسن المحاضرة ، ج1، ص 342.

للأسلاف وبعد أن أكد أن المنطق أصل كل علم ربما تاثرا بالغزالي، وترجم لابن سينا والفارابي ومدح صنيعهم، ونبه إلى وجوب التفريق بين اقسام علم النجوم التي فيها ما هو من فروض الكفاية، استدرك على ذلك وشن حربا شعواء على الفلسفة، بقوله : "وإياك أن تظن من كلامنا هذا أو تعتقد كل ما أطلق عليه اسم العلم حتى الحكمة المموهة التي اخترعها الفارابي وابن سينا، ونقحه نصير الدين الطوسي ممدوحا، هيهات هيهات.إن ما خالف الشرع فهو مذموم، سيما طائفة سموا أنفسهم حكماء الاسلام، عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال وسموها حكمة، وربما استجهلوا من عُرِيَ عنها، وهم أعداء الله، وأعداء أنبيائه ورسله، والمحرفون لكلم الشريعة عن مواضعه. ولا تكاد تلقى أحدا منهم يحفظ قرآنا ولا حديثا، وإنما يتجملون برسوم الشريعة حذرا من تسلط المسلمين عليهم، وإلا فهم لا يعتقدون شيئا من أحكام الشرع، بل يريدون أن يهدموا وينتقضوا عراه عروة عروة، قيل:

وما انتسبوا إلى الاسلام إلا*** لصون دمائهم عن أن لا تسالا

فيأتون المناكر في نشاط*** ويأتون الصلاة وهم كسالى

فالحذر منهم. وإنما الاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم متسترون بزي الاسلام... وحفظ عقائدهم"[349].

وتزامن مع هذا الرفض نمو غريب للأحكام والفتاوى المُدينة لتيار القبول والتوفيقيين والمتهمة لهم في دينهم والمروق من الملة وما يتبعها من أحكام وألبست مواجهة العلوم العقلية لباس صراع العقيدة بدلا من بينات الفكر ، وكان ذلك من قبل علماء او فقهاء لايعرفون عن هذه العلوم الا ما رشح من خلال تلك الفتاوى ثم توسعت إلى محاربتهم وتصفية بعضهم جسديا أو علميا بإبعادهم عن مؤسسات التعليم، وإحراق كتبهم، وتضييق الخناق عليها، واظطر بعضهم للظهور فيما يؤلفه بمظهر المساير لهم خوفا على نفسه[350]، تمت تصفية كثير منهم مع الزمن، وكل ذلك تم وفق تبريرات فقهية اجتهادية،

وربما طال أمر التصفية لمؤلفاتهم وتم تتبعها، ولم ينج منها سوى ما أخفي في البيوت أو هُرِّبَ إلى اقاصي البلاد، فلم تنتشر كتبهم الفلسفية ولا يكاد يعثر عليها في القرون اللاحقة إلا نادرا، وإذا علمنا أن مؤلفات ابن رشد الحفيد الفلسفية كثيرة فإننا لانملك منها الان سوى القليل وكذلك الامر لكل المشتغلين بالفلسفة.

ومن أوجه التصفية ان كثيرا من العلماء العقليين ذهبت مؤلفاتهم أدراج الرياح لانها لم تجد من يقرؤها بل وجدت مناخا يزهد فيها وينعتها بكل النعوت التي تنفر منها، ويجعلها في عداد المؤلفات المغضوب عليهم، وكان

---

[349] طاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ص

[350] ترجم القفطي لمحمد بن علي بن الطيب المتكلم البصري(436هـ) فقال عنه في كتابح إخبار العلماء، ص 221–222.:" إماما عالما بعلم كلام الاوائل قد أحكم قواعده وقيد أوابده، وتصيد شوارده، وكان يتقي أهل زمانه في التظاهر به فأخرج ما عنده في صورة متكلمي الملة الاسلامية ، وأحكم ما أتى به من ذلك... ولم يزل على التصدر والتصنيف والاملاء والافادة لمذهب الاعتزال".

كثير من العلماء الذين اشتغلوا على العلوم العقلية والنقلية ولهما فيهما باع في التأليف برزوا في النقلية ، ولم يذكروا في العقلية إلا عرضا ومن بينهم محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل المازني(ت 697هـ) الفقيه والقاضي الشافعي والمؤرخ المشهور وعالم المنطق والهندسة، إلا ان آ ثاره التي بقيت مشهورة في تاريخ بني ايوب الموسوم ب" مفرج الكروب في اخبار بني أيوب"[351].

والاغرب ان سطوة هذا التيار تعدت إلى الحدود التي يتم فيها تحريف كلام كبار العلماء الذين اشتهروا بعموم الرفض او موافقة بعض ما كتبوا لحقائق الحكمة حتى تستقيم مع قناعاتهم وأمزجتهم الشخصية التي يودون نشرها دون غيرها، وفي هذا الاطار يتحدث السبكي عن نماذج عاينها بقوله:" وقد وصل حال بعض المجسِّمة في زماننا إلى أن كتَبَ شرح " صحيح مسلم" للشيخ محيي الدين النووي، وحذَفَ من كلام النووي ما تكلم به على أحاديث الصفات فإن النوويَّ أشعريُّ العقيدة، فلم تحمل قوى هذا الكاتب أن يكتب الكتاب على الوضع الذي صنفه مصنفه، وهذا عندي من كبار الذنوب، فإنه تحريف للشريعة، وفتح باب لايؤمن معه بكُتُبِ الناس وما في أيديهم من المصنفات فقبح الله فاعله وأخزاه"[352].

ويبدو أن الشيء نفسه وقع لشيخ الاسلام ابن تيمية من قبل الامام السيوطي الذي نسخ كتاب المنطق لابن تيمية وقال في آخر الكتاب :" هذا آخر ما لخصته من كتاب ابن تيمية، وقد أوردت عبارته بلفظه من غير تصرف في الغالب، وحذفت من كتابه الكثير، فإنه في عشرين كراسا، ولم أحذف من المهم شيئا ولله الحمد والمنة"[353]. ولا شك أن السيوطي حذف ما يعتقد أنه غير مهم في نظره في إطار حسن النية، ورغم ذلك فإنه يعتبر تصرف غريب وتحريف واضح في نصوص ابن تيمية لاننا لا ندري مالذي حذفه ولماذا حذفه ، ولماذا ابقى على غيره، وكلها اسئلة تؤكد سهولة التدخل في اقوال العلماء حتى يتم تنقيتها بما يتوافق مع طرح هذا التيار.

وقد كتب ابن قيم الجوزية نصوصا هامة فيما يتعلق ببعض العلوم العقلية وإشارات القرآن إليها في مخلوقات الله المعاينة، لكن النصوص التي يتم التركيز عليها من تيار الرافضين هي تلك التي تسهم في تأييد هذه الوجهة، وكذا يقال في كثير مما كتبه ابن تيمية.

وكانت السلطة السياسية في الاغلب الاعم تسير في صف المهيمنين على الساحة الدينية وهم طبقة الفقهاء، وما كان منها إلا مسايرتهم من أجل التمكين لشرعية السلطة واستمرارها، وأحداث التاريخ تؤكد ذلك

---

[351] كانت لابن واصل سفارة إلى الامبرور، وسأله عن ثلاثين مسألة في العلم المناظر فبات تلك الليلة وصبحه بالجواب دون الرجوع إلى كتبه، وكان محل تبجيل من قبله، انظر ، الصفدي، نكت الهميان، ص 250–251.

[352] السبكي، الطبقات الكبرى، ج2، ص 19. وأورد السبكي في ج2 ، ص 17 قول ابن الصلاح :" إمامان ابتلاهما الله بأصحابهما، وهما بريان منهم: احمد بن حنبل ابتلي بالمجسنة، وجعفر الصادق ابتلي بالرافضة".

[353] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 254.

من المشرق و المغرب. ومن أغرب ما فعلته السلطة السياسية ماقام به السلطان المعتمد (258-279هـ) من إجراءات حيث منع في مدينة السلام بغداد من أن يقعد على الطريق او في مسجد الجامع قاص ولا صاحب نجوم، ولا زاجر ، وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[354].

وفي هذه الاجواء المليئة بالتوجس من هذه العلوم وما طال ويطال المنتحلين لها من الطلبة والعلماء فإن الكثير من الفقهاء والمفكرين نأوا بأنفسهم وأهليهم عن هذه العلوم خشية أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الامثلة الكبيرة التي أصبحت عبرا يقصها الاباء لابنائهم والمؤرخون لاجيالهم، ولا شك أن نصوص صاعد الاندلسي، وابن خلكان، وعبد الواحد المراكشي، والسبكي، ولسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون وغيرهم معبرة جدا عن حالة الفرار من هذه الاجواء والانكفاء على الذات مما ساهم أكثر في هيمنة تيار الرفض وتمكنه من فرض رايه وسلطانه.

إن هذه العملية الرفضية ساهمت في ركود العقل العلمي الاسلامي واستسلامه للراحة الآمنة وللكسل المريح، واغلق باب الاجتهاد، أصبح الأخذ بأطروحات تووارثت مع الزمن لتصبح هي الموجه دون غيرها، وحرم العقل الاسلامي من توسيع آفاقه وزوايا نظره، ومن تجديد طاقاته الحيوية في القدرة على كشف الحقائق والاباطيل واستيعاب قضاياه ومعالجة مستمرة لمسائله ومشاكله ونوازله، وتمكنه من الارتقاء والوصول إلى الابداع والابتكار، بل جعله هذا الرفض محتبسا ومحتجزا ومحجرا عليه في دائرة ضيقة أو في نفق مضيء راضيا بذلك رغم الاختناق الذي يتعرض له بمرور الوقت، لا يستطيع ان يتفاعل مع المستجدات التي يتعرض له المسلمون في مختلف الظروف.

2- صورة العلوم العقلية في الثقافة الاجتماعية في العصر الوسيط

يمكننا أن نورد مجموعة من نصوص المؤرخين في القرون المختلفة وفي مشرق العالم الاسلامي ومغربه تتفق كلها في إعطاء صورة منفرة عن العلوم العقلية واعتبارها خطرا على الدين الاسلامي، وأن من ينتحلها قد يصل إلى اعتقادات فاسدة[355]، يوشك أن يمرق من الدين، وفي أحسن الاحوال علوم لا منفعة فيها[356]، وكيف كان التوجس منها ومحاربة بعضها كأشد ما يحارب العدو الاقسى، ولا حاجة لنا بإعادة نصوص سابقة تؤكد ذلك، مثل ما كتبه صاعد الاندلسي، أو عبد الواحد المراكشي، أو السبكي أو ابن خلدون، او الذهبي او ابن خلكان في مواضع عديدة من ترجماته لأعيان من علماء العلوم العقلية، ونكتفي بإيراد ما أورده عند ترجمته لكمال الدين

---

[354] الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج10، ص 28 أحداث سنة 279هـ.

[355] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 207.

[356] الغزالي، المستصفى، ج1، ص 3-4 جاء فيه:" العلوم ثلاثة : عقلي محض لا يحث الشرع عليه ولا يندب إليه كالحساب والنجوم وأمثاله من العلوم فهي بين ظنون كاذبة لا ثقة بها وإن بعض الظن إثم / وبين علوم صادقة لا منفعة لها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع"، وقد أخذ ابن تيمية بهذا النص . ابن تيمية ، الرد على المنطقيين، ص 136.

بن يونس (ت639هـ) وكان معاصرا له، وكان من أساطين العلماء العقليين، قال عنه ابن خلكان :" وكان الشيخ سامحه الله يتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه،" مما يؤكد ترسخ سوء الاعتقاد لدى كل من يدرس الفلسفة والمنطق بالخصوص، وكان ابن الصلاح يدرك ذلك، فاتصل سرا بكمال الدين ليتعلم عنده المنطق ، وتردد عليه مدة، ولم يفتح عليه فيه بشيء ، وقد اكد له كمال الدين بأن الناس يعتقدون فيه الخير وقراءته للمنطق تجلب له سوء الصورة التي هي عليها عند العامة، من اتهام من ينتحل هذا العلم بفساد الاعتقاد، فقبل إشارته وترك قراءته"[357].

كما كانت صورة العلوم العقلية تتجه إلى اعتبار منتحليها مصابون بخلل ذهني، او أمراض في الدين قد تودي بهم، وقل من نجا منها[358].

ولا يكتفى هذا التيار بكل ذلك بل يحاول التهوين منه واعتبار دراسته عبث للعقل يجب أن ينزه عنه، وذلك بإيراد قصص لا تخضع لاي تمحيص لتدعيم وجهة نظرهم، والتهوين من إعمال العقل والايحاء بأنه لافائدة ترجى منه، والدعوة إلى استكانته واستقالته واستراحته لانه مهما فعل فإنه لا فائدة منه، وكلها تسهم في إعطاء صورة سيئة على اي اجتهاد عقلي، فقد اورد ابن تيمية خبرا عن الخُونجي فقال:" ولهذا حكى من كان حاضرا عند موت إمام المنطقيين في زمانه الخونجي (ت 646هـ) أنه قال عند موته: أموت ولا أعلم شيئا إلا علمي بان الممكن يفتقد إلى الواجب، ثم قال: الافتقار وصف سلبي أموت وما علمت شيئا "[359].

وترجم الحافظ الذهبي(ت748هـ) لإمام الحرمين الجويني (ت 478هـ) ومما نقله عن السمعاني قوله:" وقرأت بخط أبي جعفر ايضا: سمعت أبا المعالي (الجويني) يقول: قرأت خمسين ألفا في خمسين ألفا ، ثم خليت أهل الاسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى أهل الاسلام كل ذلك في طلب الحق ، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز ويختم علقبة أمري عند الرحيل على كلمة الاخلاص لا إله إلا الله فالويل لابن الجويني"[360]. وعلق محققا السير، ما يفيد استمرار هذا التيار بمفاهيم السابقة، واصطفاف اتباعه لهذا المذهب بقولهما:" وهذا القول من إمام الحرمين شاهد صدق على فساد

---

[357] ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج5، ص 316–317.

[358] السيوطي : بغية الوعاة، ج2، ص 250 في ترجمته القاسم بن احمد بن موفق اللورقي الاندلسي(ت 661هـ) ، وكان عالما بعلوم الاوائل ، انظر ، ياقوت، معجم الادباء ص 2189، ترجمة رقم 900، وله كتاب المفصل في عشر مجلدات، وشرح الشاطبية..

[359] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 208 .

[360] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 471. وحاول السبكي في ترجمته لابي المعالي ان يشرح قول الجويني رادا على من اعتقد ان الجويني انه خلى الاسلام واهله ، بل انزل المذاهب كلها منزلة النظر والاعتبار..أنظر ذلك في ، السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص 185–186.

استخدام منطق اليونان في المطالب اليقينية، واتخاذه أصلا في الحجة والبرهان، وأن المنهج الحق هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ومن سلك سبيلهم من أهل العلم والعرفان"[361]

وربما جاز لنا في بلاد المغرب الاسلامي ان ننوه بأن المدرسة التلمسانية للعلوم العقلية التي ساهم في تأسيسها كل من ابراهيم الابلي، والشريف التلمساني استطاعت في ظل هذا المناخ ان ترسم العلوم العقلية في المنظومة العلمية المغاربية، وتشكلت في ذلك مدارس في الحساب والفلك والمنطق هذا الاخير الذي الف فيه الشريف التلمساني ، والف فيه من بعده محمد بن يوسف السنوسي وكذا عبد الكريم المغيلي ثم الاخضري بعد ذلك ، وكلهم ساهم في توطين المنطق في بلادد المغرب ، ولا شك ان تبادل الرسائل بين المغيلي المتبني للمنطق، وبين والسيوطي الرافظ له ما يفصح عن الوجهين المختلفين في التعامل والمواقف من العلوم العقلية.

3– اشكالية علمنة العلوم في الثقافة الاسلامية

منذ القرن الخامس الهجري ظهرت تقسيم العلوم إلى عقلية ودينية أو شرعية، أو نقلية ثم ترسخ هذا التقسيم واستقر على العلوم النقلية والعقلية، وإذا كان تقسيم الغزالي للعلوم بين عقلية كالطب والحساب والهندسة وغيرهان وإلى دينية كالكلام والفقه وأصوله وعلم الحديث وعلم التفسير وعلم الباطن غذا كان هذا التقسيم إجرائيا منهجيا فإنه تحول بمرور الزمن إلى جسمين أو علمين منفصلين عن بعضهما وكأنهما علمان لا رابط بينهما، وكل له مساره بعيدا عن الاخر وهومستقل عنه، وهذه الرؤية هي التي رسخت هذه الثنائية نقلي/ عقلي ورسمت حدودا فاصلة بينهما، واعتبرت العقلية علوما غير شرعية، والشرعية علوما غير عقلية، ومع مرور الزمن حدثت القطيعة بل العداء والحرب بينهما. وتكرست في المنظومة العلمية الاسلامية في العصر الوسيط تدريس العلوم النقلية التي هيمنت على مختلف المراحل العلمية في المساجد والمدارس ومختلف المؤسسات بينما كانت بعض العلوم العقلية تدرس باحتشام كبير في المدارس كالفقه والحساب والهندسة والفلك بينما صودرت الكيمياء وحوربت بشتى الطرق والوسائل باعتبارها قرينة للسحر، وإذا كان العصر الوسيط له بعض المبررات في ذلك فإنه من غير المبر أن تبقى جامعاتها في العالم الاسلامي تئن تحت هذه الثنائية عقلي/نقلي وكرست جامعات كبرى هذه الثنائية في دراسة العلوم النقلية في جامعات الازهر والقرويين، والزيتونة، وجامعة الامير عبد القادر، بينما توجهت جامعات التكنولوجيا في بلداننا الاسلامية نحو العلوم العقلية، دون دراسة لاي من العلوم النقلية الشرعية، كالفقه والاصول والتفسير، وترسخ هذا الفصل بينهما في إطار علمنة غربية لم نستطع الخروج منها. ومن ثم فإنني أدعو بكل قوة إلى تدريس بعض العلوم الشرعية في كل جامعات العلوم والتكنولوجيا، بعد دراسة وافية لما يناسبها منها، كم أدعو إلى دراسة تاريخ العلوم في كل المقاييس العلمي مثل الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء حتى يتعرف طلبتنا وعلماؤنا على الرصيد العلمي للعلوم في العصور الاسلامية، أسوة بما فعله القرافي في الحساب ولفيزياء والفلك، ودعوته إلى ذلك، والمازري، وابن رشد الحفيد الذان كانا من أقطاب الاطباء

[361] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 471 هامش 2، وفي هامش 3 من نفس الصفحة

في العالم في ذلك الوقت. وكذلك الحال في الجامعات الشرعية فلا ينبغي بحال من الاحوال أن تغفل دراسة مقاييس في الطب ، والفلك والحساب، والفيزياء حسب الحاجة المتناسبة مع العلوم الشرعية.

باختصار إزالة الفصل العنصري وجدار برلين بين العلوم النقلية والعقلية، حتى تتشرعن العلوم العقلية وتتعقل العلوم الشرعية.

4– حصاد العصر في الذهنية الاسلامية :

إننا لانزال نعاني من هذا الفصل وهذه الرؤية التي حجمت من العقل وجعلته يقتات على الماضي وعوض ان يشارك في الحضارة الانسانية لا يزال العقل الاسلامي العربي بالخصوص يئن تحت وطأة هذه الافكار، فما كتبه بعض الفقهاء في القرون السابقة حول مسائل كثيرة لا يزال يتردد في عقول الفقهاء[362]، رغم الاختلاف الرهيب بين القرون السابقة وعصرنا، وما كان في زمن قديم علما لامنفعة فيه هو الان من العلوم التي لا تقوم حياة المسلمين والبشر بدونها، بل لا تقوم للمسلمين قائمة إذا لم يتمكنوا منها، وربما كانت هزائمنا في الميادين العسكرية والاقتصادية استمرار هذا الفكر الذي كان نتاج بيئته وعصره يسير أمتنا الاسلامية رغم ما تجدد من قضايا وتبين من قصور معيب في خبرتنا بأسرار الكون وقواه المادية[363].

وكان بعض المصلحين من أمثال الطهطاوي وخير الدين التونسي والافغاني ومحمد عبده إلى ضرورة العلوم العقلية والتمرس فيها من أهم ما اق تطور المسلمين ضد الهيمنة الغربية.

وكان طاهر الجزائري له رؤيته الخاصة في ضرورة الدراسات الفلسفية وينحي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها فأطلمت العقول وضعف مستواها كما قال[364].

وقد رأيت في الثمانينات من القرن الماضي موجة من الافكار التي تعتبر الدراسة في بعض المنظومات القائمة غير مجد وغير محبذ وفتحت بعض الاقسام في اماكن مخصوصة منها المساجد لتدريس العلوم الشرعية، وتوقف بعض الطلبة عن الدراسة في الثانوي، كما وقفت شخصيا على بعض الدارسين في علم الطب والصيدلة والهندسة الذين ذهبوا إلى السعودية لدراسة علم الحديث وبالعلوم الشرعية الاخرى، في إطار تيار الرافضين الذي لا يزال يسري في أمتنا معتمدا على اجتهادات فقهائنا القدماء، ولا نشك أن العقلية الاسلامية لاتزال سهلة الجر أو لها قابلية ان تساق إلى أي ميدان باسم الحديث او باسم الحداثة دون أن يكون لها حس نقدي من التروي القرآني الواضح .

---

[362] مثل رؤية الهلال، انظر ، ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص 265.

[363] محمد الغزالي، الحق المر، ص 45.

[364] محمد كرد علي، كنزو الاجداد، ص 9.

خاتمة :

إن ما تعانيه أمتنا من أزمة في علاقتها بالعلوم العقلية والضعف الرهيب الصناعة والتكنولوجية له جذوره التاريخية العميقة في بنية العقل المسلم الذي لايزال يقتات على اجتهادات القدماء في ظل غياب كبير لإعمال العقل. ومن وجب الدعوة إل تإعادت الاعتبار العلوم العقلية كعلوم اساسية في المنطومة العلوم الشرعية، ، وإزالة الفصل بينهما. ولو درس الغزالي بقية العلوم كالفلك وغيره لكان له راي آخر فيها شبيه برأيه في المنطق، ولوكان في عصرنا لجزمنا ا، مختلف العلوم عنده ستصبح علما أساسية وفروضا كفائية

– تفعيل الخطاب القرآني حول توظيف العقل وما يستلزمه من العلوم العقلية

– تأكيد نسبية الفتاوى السابقة وارتباطها بالبيئة، والخروج من دائرة ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا علىآثارهم مقتدون﴾.

– التأسيس لفقه معاصر يتوافق مع الحقائق الموضوعية للعلوم العقلية، بعيدا عن معيقات وتأثيرات الماضي.